

أحمد فريد محمود

عندما يبكى الرجال

الناشــــر

دار قبــــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب: عندمـا يبكـى الرجـال

المـؤلــف : أحمد فريد محمود

رقـم الإيـداع : ٥١٥٦/٢٠٠٠

ترقيـم الدولى : ISBN
977 - 303 - 251 - 5

تـاريخ النشر : ٢٠٠٠

الناشـر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (عبده غريب)
شركة مساهمة مصرية

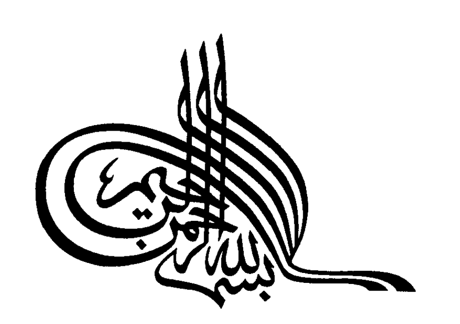
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون - الدور الأول - شقة ٦
☎ ٢٤٦٢٥٦٢ - فاكس/ ٢٤٧٤٠٣٨

التوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابـــع : مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

عندما يبكى الرجال







الإهداء

البكاء من أجل الآخرين .. حباً

ولكنه من أجل أنفسنا قهراً

أحمد فريد

(١)

كل شيء هادئ تماماً ...

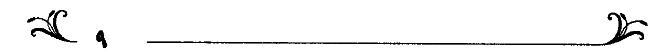
الطريق خال .. إلا من سيارة مارقة بسرعة، وبعض المارة وهم فى عجلة من أمرهم .. لا زئير لعجلات الترام وهى تزحف فى تثاقل .. ولا صدى لآلات التنبيه وهى تقتحم الآذان بلا رحمة.

لا شيء مطلقاً استطاع أن يخطف انتباه صابر الجندى وهو يطل من خلال نافذته على شارع شبرا.

كان مسترخى النظر .. مستسلماً للسكون الحالم حتى كاد ينسى للحظات قليلة أنه يطل على نفس الطريق الذى كان منذ سويعات يموج بالحشود المتسابقة على خطوة .. والمتصارعة على رقعة أمان فوق الرصيف .. خوفاً من سيارة قد فقأت فوانيسها ولم تعد تبصر .. أو من تمرد حمار جامح لا يهدأ إلا بعد أن يترك بصمات حوافره على وجوه بعضهم.

كاد أن ينسى كل هذا .. لولا ما أبدته أمعاؤه من تمرد واستغاثة ألم من قسوة الجوع .. وكذلك صوت مؤذن الجامع وهو يشق الصمت بنبراته مرتلاً:

فالشهر للصوم .. وقد اقترب موعد انطلاق مدفع الإفطار.



ولهذا كان صابر الجندى مستكيناً لنشوة الهدوء .. و .. لرائحة الملوخية المتسللة من مطبخ زوجته بدرية.

وهو يعلم ضآلة مقاومته أمام إغراء طهوها أو أى طهو .. فآثر الاستسلام بدلاً من العناد الذى قد يؤدى فى النهاية لإفطاره قبل الموعد بساعات.

استدار كالمسحور تجاهها، وبتأدب المقهور طلب منها أن تغلق الباب دونها حتى تأمن ثورته .. ففعلت مبتهجة تدغدغها أحاسيس النشوة فى صدرها .. فتلك من أسعد لحظاتها .. وكفاها فخراً أن ترى زوجها الحبيب لا يقوى على مقاومة ما تصنعه يداها.

ولكنه فى طريق عودته إلى النافذة مرة أخرى توقف فجأة .. كأنما تذكر أمراً هاماً .. ثم تلفت حوله فى تلصص واتجه إلى دولاب ملابسه بحذر شديد .. وقد اعتراه الاضطراب تماماً وتبدلت نظرته الناعسة إلى حركة دائبة فى كل اتجاه .. ثم دس يده لتعبث بسرعة كبيرة وسط غياهب ملابسه .. وأخرجها وهى تضم بين أصابعه قطعة موز .. تأملها برهة .. ثم سرعان ما دسها تحت سترته مهرولاً إلى النافذة من جديد وبدأ يلتهم الواحدة تلو الأخرى مختلساً التفاتة إلى الوراء كلما أمكنه ذلك .. كأنه يخشى أن يشاركه أحد فى وليمته.

وما هى إلا دقائق قليلة حتى أتى على كل ما فى سترته، ولم تعد لديه مشكلة سوى التخلص من القشر .. وأسعفه تفكيره أن يلقى

به من النافذة على الطريق الهادئ .. كما تعود دائماً عندما يلقى بمسئولياته على الآخرين.

وما أن فعل ذلك حتى خارت مفاصله هلعاً .. وخجلاً .. عندما اكتشف لحظتها أنه قد ألقى ببقاياه على رأس أحد أبنائه.

وسرعان ما تملك نفسه عندما تأكد من أن القادم هو ابنه نظمى وليس ولده الآخر شريف .. فتراجع مسرعاً لاستقباله وهو يلعن تلك الأمعاء التى كثيراً ما أوقعته فى مواقف محرجة، كما أنها تسببت فى أنه ينسى مهمة نظمى وأخته سميرة التى أرسلهما من أجلها.

وعند لحظة استقباله على الباب بادره متلهفاً.

- هه .. ماذا فعلت .. وأين سميرة؟

أجاب نظمى وهو لا يزال يلهث:

- ستلحق بى فيما بعد .. فلقد أصرت تانت ثريا أن تبقيها بعض الوقت.

انفرجت أسارير صابر الجندى متسائلاً:

- وكيف حالها.

وأعقبها مستدرجاً .. وهو يختلس التفاتة سريعة.

- كيف حال تانتك ثريا ياولد.

وفى همس .. كأنه يحادث صديقاً له .. أجابه:

- إنها فى انتظارك الليلة .. و..

وقبل أن يسترسل نظمى .. كان والده قد استخلص جنيهاً من أوراقه ودسه فى يده مصطنعاً الشدة قائلاً:

- اغرب عن وجهى الآن .. وانس قشر الموز.. وإياك أن ..

فقاطعه نظمى بفخر يتناسب مع سنوات عمره الستة عشر:

- كلنا ندرك يا أبى طبيعة ثورتك فى شهر رمضان .. بالأخص أمى.

ثم تجاوزه إلى الداخل .. وهو يكتم ضحكة خبيثة.

بينما عاد الآخر إلى النافذة من جديد .. يطل منها فى انتظار مدفع الإفطار.

كان صابر الجندى فى الخامسة والأربعين .. أملس الوجه والحديث .. فاره القوام والنفاق .. أزرق المقلة والناب .. أسود الشعر والقلب .. شرهاً فى أكله والحديث عن الآخرين .. عريض المنكبين والذمة.

كل تلك الصفات ساعدت على نجاحه فى عمله حيث كان يدير مكتباً للسمسرة فى العقارات والأراضى .. استطاع من خلاله أن يحقق أرباحاً سريعة وسهلة .. إلا أنه يعتبر مكسبه الأعظم من ذلك

المكتب هو لقاؤه بثريا التى جاءته منذ سنوات قليلة تبحث عن مسكن بجانب البوتيك الذى تملكه فى منطقتهم .. ومنذ ذلك اليوم استطاعت أن تملك المسكن .. وكذلك قلبه وولعه بها .. لتتطور العلاقة إلى أبعد حدودها، ولم يدع فرصة إلا واغتنمها لصالح تلك العلاقة .. حيث دأب على الإغداق عليها ببذخ بالرغم من عدم حاجتها هى وشقيقها سالم الذى يقيم معها .. ويدير لها البوتيك.

فلقد سلبته عقله واتزانه .. استطاعت من خلال لياليها الحمراء أن تختطفه إلى عالمها بعيداً عن واقعه ومسئولياته .. يدور فى فلك الحنين إليها طوال ساعات النهار .. سابحاً مع خياله المتأجج بلظى الرغبة والاشتهاء .. حتى يحل الليل فيهرع إلى منزلها .. حيث يفقد عقله الحائر .. وتهدأ تشنجات مشاعره الملتهبة وهو جالس أمامها .. مستسلماً لجمالها .. ولضحكتها الرنانة وعينيها الواسعتين فى نظرتهما الصقرية .. وشعرها الريفى المتهدل على أكتافها العارية .. وقوامها الفارع الذى عرفت كيف تروضه فى خطواتها وجلستها .. وأشياء أخرى باتت وبالاً عليه كلما أرتمى على الفراش بجانب "بدرية" زوجته فيتذكر تلك الأشياء ليتسلل النوم بعيداً عنه، وليبدأ رحلته مع الانتظار والقلق حتى يحين موعد اللقاء من جديد.

ولهذا كان صابر الجندى سعيداً بالنبأ الذى أتى به ولده نظمى .. فهو يشعر بأن الكون والطبيعة يبار كان تلك العلاقة .. وهو يملك المال والصحة. وزوجته مسالمة لا تؤرقه فى شىء .. ولا تدعى لنفسها

حقوقاً غير التى يشرعها لها .. كما أنه استطاع أن يبهر ابنه نظمى وابنته سميرة بالمصروف المبالغ فيه حتى يضمن صمتهما وسخرهما فى مراسلاته مع ثريا فى أوقات الطوارئ وغير الطوارئ .. غير أنه لم يفلح فى اتباع نفس الأسلوب مع ولده شريف بالرغم من أنه توأم لسميرة فى سنوات عمره الخمسة عشر .. وهو لا يدرى السبب الحقيقى لذلك .. فربما لأن شريف قريب الشبه إلى حد ما من والدته .. أو لأنه يلمس فيه ذكاء لا يتناسب مع عمره .. أو لأنه اكتفى بذلك القدر من وسائل الاتصال بالسيدة الأخرى التى أدخلها فى حياته .. وفى كل الحالات لم يمثل شريف بالنسبة له أى وجود مقلق على تلك العلاقة .. إلا أنها انعكست على تصرفاته معه .. فشريف لا يحظى بالجنيهات المتوالية على إخوته .. ولا بالهمسات الخفية التى تدور بين أبيه وبينهما .. ليجد نفسه مرغماً على وحدته .. مكتفياً بحنان أمه وبالقرشين مصروفه اليومى كالمعتاد.

فوجئ صابر الجندى بالمآذن من حوله تردد آذان المغرب وهو سابح مع ذكرياته أمام النافذة .. فهرول مسرعاً إلى الخلف يبحث عن مائدة الطعام .. بالرغم من أنه ليس فى حاجة إلى ذلك .. ولكن ليس هناك ما يمنع من مواصلة تمثيلية صيامه إلى النهاية .. وراح يصيح .. مستعجلاً زوجته تارة وناهراً شريف لمساعدتها فى نقل الأطباق تارة أخرى .. ثم سارع باتخاذ مكانه على المائدة وهو يلتهم ما أعد أمامه بعينيه قبل فمه .. وما كادت تستقر الأمور حوله ..

جلست بدرية بجانبه .. بينما استكان شريف بجوار أخيه نظمى .. حتى بدأ هو التهامه للأطباق فى هجمات متتالية فى كل اتجاه كأنه لم يذق الطعام منذ ليال طويلة .. وكادت بدرية أن تنغص عليه نشوة ذلك الالتهام بسؤالها.

- أين سميرة .. لماذا لم ..

ولكن القدر يرحمه من توتره .. عندما يترامى إلى مسامعهم صوت الباب الخارجى وهو يغلق وتظهر سميرة مهرولة إلى الحمام وهى تردد:

- سأحضر فوراً .. بعدما أغسل يدى ..

وتوارت سميرة ابنة الخمسة عشر ربيعاً وراء الباب وراحت تراقب وجهها الصغير أمام المرآة وهى تمسحه بأصابعها فى ارتباك شديد .. كأنما تزيل من فوقه آثار أمور تسعى إلى إخفائها.

وهى حقاً تريد ذلك .. فلقد استسلمت لداعبة تانت ثريا لها وهى تحدد على وجهها ألوان المكياج المختلفة حتى تراها عروسة .. وحلوة .. تماماً كما استسلمت كعادتها لداعبات سالم وهو يتطاول بيده على جسدها النحيف ليحرك فى صدرها ما لم يستطع الزمن تحريكه .. ولهاذ خطفتها نشوة السعادة بعيداً عن موعدها حتى أفاقت على مدفع الإفطار فجاءت مهرولة.



وعندما تأكدت سميرة من إزالة كل شىء .. اقتربت من المائدة وجلست بينهم لتتناول الطعام .. وهى بين الآونة والأخرى تختلس نظرة مريبة إلى أمها .. وتستقبل نظرة رضاء من أبيها. الذى بدا قلقاً شغوفاً على معرفة الأخبار الجديدة التى أتت بها ابنته .. ولم يعد فى مقدوره التحكم فى رغبته أكثر من ذلك، فراح يتململ على مقعده وهو يلاحقها بعينيه كأنه يحثها على الإسراع فى أكلها .. أو أنه يقدم إليها اقتراحاً مستتراً بأن تتوقف عن الأكل بضعة دقائق ليختلى بها حتى تهدئ من قلقه .. فهى تستطيع أن تعود إلى طعامها مرة أخرى.. أو لا تعود .. فذلك لا يهم .. فالأهم هو ما يخصه فقط.

وسميرة تدرك هذا .. ولطالما استغلت تلهفه المعتاد لصالح رغباتها .. فكل تباطؤ وتقطير فى معلوماتها سوف يزيد من رصيد تحكمها وإملاء شروطها وتحقيق مطالبها من فستان جديد .. أو الاشتراك فى رحلة مع مدرستها وما تحتاجه الرحلة من مصاريف إضافية .. أو الذهاب إلى السينما بمفردها بلا منغصات من شريف.

ولكن اليوم الأمر يختلف .. فهى تطمع فى أكثر من ذلك بكثير.. وهى اتخذت قرارها بألا تخضع لمحاولاته اليائسة للانفراد بها إلا إذا تأكدت تماماً من استجابته لمطلبها اليوم.

فهى لا تريد مصروفاً إضافياً .. ولا تطالب بمثل الجنيه الذى فاز به نظمى .. ولا الساعة الإلكترونية التى وعدها بها فى السابق.

ما تريده لن يكلفه شيئاً من هذا .. فكل ما تريده هو موافقته وفرض تلك الموافقة على باقى الأسرة، لكى تمضى أجازتها فى اليوم التالى عند تانت ثريا .. والأمر يحتاج منها أن تختلق اسماً وهمياً لإحدى صديقاتها لكى تتعلل بغيابها طوال تلك الفترة غداً ... وكذلك يتحتم عليه هو أن يقبل تلك الحجة.

وهو مطلب غال حقاً.

فعند تانت ثريا ستستمتع بكلمات الإطراء التى تلاحقها بها .. ستجلس كأى فتاة كبيرة تتبادل الحديث معها فى شئون كثيرة .. وربما أيضاً يحدث كما حدث لها اليوم بأن تضع المساحيق المختلفة على وجهها ليتبدل كل شىء فيه حتى اصفراره سيختفى .. ستتصفح المجلة التى يملكها سالم التى تضم صور مشاهير السينما، لقد وعدها بذلك إذا جاءته فى اليوم التالى بمفردها:

كل تلك الأحلام جعلتها تتجاهل عن عمد حيرة والدها الذى انتهى بالفعل من طعامه .. ومن صبره.

ولكن يبدو أن الأمور لن تسير حسب هواها.

حيث قطع عليها شريف أحلام يقظتها .. وباغتها بسؤاله:

- أين كنت طوال هذه الفترة؟

ألقت نظرة سريعة إلى والدها .. كأنها تطلب العون .. ثم أجابت بهدوء:

- كنت عند هدى صديقتى.

- ألم أقل لك لا تذهبى لهدى مرة أخرى .. فهى وحيدة وليس لها أخ يحكمها.

ويتدخل نظمى بلا اكتراث:

- وما دخلك أنت يا متطفل.

ولكن شريف لا يلتفت إليه .. كأنه يصر على ملاحقتها .. وارتفع صوته قليلاً فى نظرة حازمة لها:

- إياك أن ...

ويخشى صابر الجندى أن يتطور الحديث إلى حيث لا تحمد عقباه فيسارع ناهراً شريف بلا مقدمات:

- أنت هكذا دائماً .. متطفل سمج .. تميل إلى الإيذاء والنكد .. اسمع يا ولد، لا تتدخل مرة أخرى فيما لا يعنيك .. أفهمت.

وينزعج صابر لنظرة طفله الحائرة إليه .. وكأنه فجأة بدا عارياً أمامه .. فصاح به فى غضب:

- اغرب عن وجهى ..

ثم التفت تجاه بدرية زوجته فى التفاتة سريعة .. واستطرد:

- لعنة الله عليك .. لم ترث إلا النكد والهم.

وانتفض مع ثورته .. وسارع إلى غرفته ليرتدى ملابسه استعداداً للذهاب إلى مكتبه .. وإلى ما بعد الانتهاء من مكتبه.

بينما تسلل شريف فى مذلة إلى غرفته .. وما أن اتكأ على حافة الفراش حتى استسلم للبكاء فى صمت.

وتجد سميرة الفرصة مواتية لها فتلحق بأبيها داخل غرفته حيث تلقفها فى صدره وراح بربت على رأسها كأنه يسترضيها .. وتأكيداً لاسترضائها مد إليها بجنيه مماثل كالذى حصل عليه نظمى.

ولكنه يفاجأ بها تتمنع .. وتخبره برغبتها فى الذهاب إلى تانت ثريا فى اليوم التالى.

ويغيب صابر الجندى لحظات مع نفسه قبل أن يسألها:

- هى طلبت ذلك؟

فأومأت سميرة بالإيجاب .. وفى عينيها نظرة ترقب.

وكأنها حصلت على أموال الدنيا عندما همهم إليها مستسلماً.

- موافق .. ولكن ماذا ستقولين لأمك.

سارعت والبهجة تملأ وجهها.

- سأقول أننى ذاهبة لأستذكر دروسى مع هدى.

ثم اختفت من أمامه فجأة كأن الأرض قد ابتلعتها.

وبالرغم من أنها توارت عن عينيه إلا أنه ظل مثبتاً نظرته تجاه الباب، وقد تدلت على طرف شفته ابتسامة امتنان تناسبت مع أحاسيس الفخر والزهو لأن لديه أطفالاً متفهمين لرغباته وحقيقة واقعه.

تحرك إلى خارج الغرفة .. وقد منحه ذلك الإحساس رغبة قوية ليؤكد على تحقيق مطلب ابنته .. فدلف إلى غرفة زوجته التى كانت تجلس أمام أكوام من ملابسه ترتبها بعد أن غسلتها .. وقد عقصت رأسها القصير بالمنديل المعتاد .. فسكن برهة يتأملها من ظهرها كأنه يعايش مقارنة سريعة فى خياله بين زوجته بدرية التى ما تكاد تنتهى من قوقعتها داخل المطبخ حتى تسارع إلى شئون أخرى ثم ترتمى على الفراش بجانبه وهى بقايا امرأة .. وما تسرب إلى مسام جلدها من رائحة طهو اليوم .. وكثيراً ما كان يستنتج ما أعدته من طعام عند عودته من الخارج إذا ما اقتربت منه أكثر من اللازم.

وتأخذه المقارنة إلى حيث أحدث أنواع البرفانات .. والملابس التى تحدد معالم الأنوثة الفياضة .. والشعر الذى ذابت بين خصلاته كل ألوان الطيف .. والمساحيق المتعددة. والابتسامة الهادئة والنبرة الحالمة .. تأخذه إلى حيث (ثريا).

وكأنه تذكر فجأة أنه لم يأت إلى غرفتها إلا من أجل شىء آخر غير تلك المقارنة .. فاقترب منها وهو يعلن عن وجوده بسعلة خفيفة

أتبعها بتعليماته الخاصة بسميرة .. وطلب منها ألا تعارضها فى ذلك الأمر .. وكعادته دائماً فى مثل تلك المواقف لم ينتظر تعليقاً منها .. فتعليماته بالنسبة لها دستور لا تجسر على مناقشته .. ولكنه فى هذه اللحظة اضطر للتراجع عن انصرافه متحفزاً عندما استوقفته وقد سارعت إليه وهى تهندم له ملابسه .. ثم قالت له فى شىء من الاضطراب:

- الولد لا يزال يبكى .. ويريد أن يستسمحك:

أخذته الدهشة:

- من .. شريف؟

فأومات برأسها مستعطفة .. بينما استقرت أسارير التعجب على وجهه، كأنه يتساءل عن السبب .. أو كأنه نسى ما حدث وهو حقاً لم يعد يذكر ما حدث .. وهو لا يحمل لشريف إحساساً يختلف عن أحاسيسه تجاه نظمى وسميرة .. فهو يحبه كما يحبهما ويرعاه بقدر رعايته لإخوته.

واستغلت الأم تلك الموافقة الصامتة .. وهرولت إلى الخارج بضع لحظات لتعود برفقة شريف الذى تخبط فى خطواته وهو متجه إليه .. ثم سكن أمامه فى نظرة مستسلمة .. وهمس:

- أنا متأسف يا أبى ..



فتقدم صابر بخطوة من ولده وربت على كتفه برفق مبتسماً:

- أنا لست غاضباً منك يا شريف .. فأنا أحبك كثيراً لأنك مطيع .. وكذلك مجتهد فى دروسك.

ثم تناول ورقة نقدية من فئة العشرة قروش ومدها إليه وهو يأخذ طريقه إلى الانصراف .. ضاحكاً.

- خذ يا شريف واشترى الحلوى التى تريدها.

وانصرف صابر الجندى ليبدأ رحلته اليومية وهو فى طريقه إلى مكتبه كل يوم بعد الغروب طوال الثلاث سنوات الماضية .. وذلك منذ لقائه الأول بثريا.

فكانت رحلته تبدأ بالمرور على صاحبه نيقولا البقال الذى يعد له صندوق السعادة كما كان يطلق عليه وهو عبارة عن صندوق من الكرتون فى حجم صندوق الأحذية .. يضم بداخله زجاجة الروم وشرائح البسطرمة وحبات الزيتون الأسود .. ثم يعرج إلى الأسطى قاسم الحلاق يتخلص من شعيرات ذقنه التى تسللت إلى وجهه .. والأهم من كل هذا هو التأكد من لمعان حذائه عند الأسطى سعيد الذى دأب على أسلوب جديد معه فى مسح الأحذية بأن يضيف من أنبوبة خاصة بكريم الشعر إلى حذائه حتى يزيد من لمعانه .. ولا مانع من أن ينقلها إلى منزله كل يوم لاستعمال زوجته الشخصى .. فثمن الكريم يضاف للحساب دائماً .. وتنتهى الرحلة إلى مكتبه حيث

تستيقظ كل مواهب صابر الجندى من عذوبة فى الحديث وبراعة فى الإقناع والتشكل حسب مقدرة العميل.

ولكنه اليوم كان قلقاً على غير عادته .. متوتراً فى تصرفاته مع موظفيه .. ملولاً فى حديثه مع عملائه .. كانت نظرته ما تكاد ترحل عن عقارب الساعة حتى تعود مرة أخرى .. ولم يجد بدا فى النهاية من أن يستدعى أحد موظفيه ليسأله بتوجس.

- ألم يحضر عم فهمى للآن:

وقبل أن يتفوه الآخر بحرف واحد توقف مضطراً وتراجع منسحباً .. بينما استرخت أسارير الرضى على وجه صابر الجندى، عندما ترامى إلى سمعيهما أصوات الضجيج خارج المكتب، المصحوبة بالنبرة الخشنة والقهقهة المستفزة.

فلقد وصل عم فهمى.

كان فهمى هذا هو أهم ما فى رحلة صابر الجندى اليومية .. متميزاً عن الآخرين فى كل شىء .. فى قصر قامته .. والعينين المنتفختين .. وفى الأذن العريضة .. والرقبة المدكوكة عل جسد مترهل الجوانب، وهى تحمل أعباء رأسه الكبير وما فوقها من جيوب سرية داخل عمامته الملفوفة باتقان كبير.

وما هى إلا لحظات قليلة حتى اقتحم بعدها عم فهمى مكتب

صابر الجندى كعادته دائماً وهو يحمل فوق كتفه وحول عنقه وتحت إبطه وبين أصابعه العديد من السبح المتباينة الأحجام .. وبعض الراديوهات الصغيرة .. وكثيراً من أعواد البخور وأكياسه .. وذلك بخلاف ما يظهر قهراً من خلال تمزقات البالطو، حيث تطل مجموعة من الأمشاط فى جانب .. وبعض الميداليات الرخيصة فى جانب أعجب.

وقبل أن يعلن صابر الجندى عن غضبه لتأخره .. لاحقه الآخر قائلاً:

- انتظر.. لا تغضب .. لا تحزن .. لا تيأس .. وإلا ...

وادعى أنه سينصرف من أمامه .. فانتفض صابر الجندى مسرعاً خلفه ولحق به مسترضياً .

- إلى أين يا داهيه.

فتلكأ الرجل متدللا بكيفية لا تتناسب مطلقاً مع سنوات عمره السبعين.

ثم التفت إليه بشىء من الثقة ثم قال:

- قلت لك .. لا تغضب .. ولا تحزن .. ولا ..

فقاطعه صابر الجندى بانفعال:

- ولا تيأس .. حفظتها والله على ظهر قلب .. أخبرنى الآن ما الأخبار.

تلفت عم فهمى حوله فى تلصص ثم سحبه من يده بضع خطوات وهمس .. أو حاول أن يهمس:

- لقد جئتك اليوم بالخير كله .. بأكسير الحياة .. والصحة والشباب.

أطلق صابر الجندى ضحكة بلهاء وقد لمعت عيناه ببريق الترقب والفضول وحاول أن يستميله لكى يكشف له عن ذلك الأكسير الذى سيعيد إليه ما اقتنصه الزمن من صحته وشبابه.

ولكن الآخر تلكأ قليلاً فى محاولة للمراوغة، التى انتهت فوراً بمجرد أن اطمأن على الخمسة جنيهات التى دسها صابر فى كفه وقام هو بدوره بدسها داخل كهوف ملابسه.

ثم تأهب لإلقاء القنبلة كما كان يدعى .. وصاح بفخر:

- العنبر.

عنبر..

فهز رأسه مجيباً ومؤكداً

- أى نعم العنبر

وهو يشدد على أحرف الكلمة .. ثم استطرد:

- العنبر يا سيدى هو أحدث ما توصل إليه كهول العلماء ..

والخبراء أمثالى .. كما أن له نتائج مضمونة .. و .. وفعالة.

ثم راح يطلق قهقهاته المزعجة بصوته الأجش .. بينما وقف صابر مشدوهاً .. وبدا كأنه غير مقتنع .. فلاحقه الآخر:

- ما بالك تقف هكذا .. ألا تشكرنى.

وبفتور مثير أجابه:

- أشكرك على ماذا .. فلقد ظننتك جاداً فى بادئ الأمر .. و ..

قاطعه عم فهمى بازدراء:

- أتشك فى إخلاصى يا صابر بك .. أتستهين بسحر العنبر .. على كل حال لا تغضب .. ولا ..

وأكمل عبارته المأثورة إلى آخرها .. ثم تصنع إعادة الخمسة جنيهات بصوت متراخ.

ولكن الآخر يلاحقه قائلاً:

- لا داعى لذلك .. ولكن أخبرنى بماذا أشار عليك كهول العلماء عن كيفية استعماله.

وهنا ابتهجت أسارير الرجل .. وسارع بقوله:

- عليك بالشاى يا سيدى .. قطعة صغير تذيبها فى الشاى .. وسترى كيف ستذوب معها قلوب العذارى.

وبلا مقدمات استدار منصرفاً تصاحب خطواته أصوات تراطم السبح مع بعضها البعض .. وشخللة الميداليات فى داخل سترته.

بينما سكن صابر الجندى يراقب انصرافه فى صمت .. وحيرة.

فلقد تجاوز اليوم عم فهمى حدود المعقول بالنسبة لصابر الجندى .. حيث كان مقبولاً فى السابق أن يستسلم لكل مقترحاته الغامضة فى دنيا الأعشاب السحرية .. وجوزة الطيب .. إلى آخره من تراكيب متوارثة قد تكون وصلت إلى مسامعه يوماً .. أو رغبة فى اكتشاف الجديد .. أما مسألة العنبر تلك فهى ما لم يستطع تقبلها .. وبالرغم من ذلك فقد آثر ألا يغضبه فربما يأتى منه الخير يوماً.

تحرك صابر الجندى تجاه المرآه المرفوعة على الحائط وأخذ يهندم فى ملابسه ويتأكد من تصفيف شعره .. ثم حمل صندوقه الكرتونى منصرفاً إلى حيث موعده المعتاد.

فلم يكن فى حاجة إلى أن يستعمل أية مواصلة .. فالمكان على مقربة من مكتبه.

الطريق إلى شارع الترعة البولاقية ممتع بالنسبة إليه، وهو يخترق الحشود التى قد يصادف خلالها الوجه الحسن .. والقد الممتلئ .. وربما تقع عيناه على ملصقات أحد الأفلام فيقف أمامها يستطلع الأمر بتأن، وذلك لا يمنع من تلبية نداءُ بطنه فيندلف داخل محل الحاتى ليهدئ من عويلها.



وتكون شقة ثريا نهاية المطاف بالنسبة له .. حيث يتوه فكره ويجد قمة سعادته .. ويفقد اتزانه ليكتسب طباعاً جديدة تحلق به إلى دنيا الأحلام الوردية وتدور به فى فلك النعيم والاطمئنان.

فلقد كانت ثريا على قدر كبير من الجمال .. والأنوثة .. استطاعت أن تتحدى سنوات عمرها السبعة والثلاثين بتقمصها كيان فتاة العشرينات كما أنها كانت على نفس القدر من الذكاء .. سواء فى استقبالها له وما يستتبع ذلك من كلمات الشوق واللهفة، برفقة ابتسامتها الساحرة أو فى اختيارها لنوع الحديث الذى يجمع بين ثلاثتهم هى .. وهو .. والصندوق.

وكثيراً ما كان يداعب ذلك الذكاء تفكيرها فتقترب من واقعه الخاص وهو مستسلم تارة .. ومستمتع فى أخرى .. حتى تلعب النشوة برأسه فيبدأ فى الحديث عن كل ما يخص ذلك الواقع .. يحدثها عن تصوراته للمستقبل .. وعن قدره فى الارتباط ببدرية زوجته .. وبأنه سيحقق لنظمى رغبته فى استكمال تعليمه بالخارج بعد انتهاء دراسته الثانوية هذا العام وعن سميرة التى كبرت والتى سيكون لها حياة مستقلة بعد سنوات قليلة .. وعن شريف الملتصق بأمه إلى حد الجنون .. وكأنه بذلك يطمئنها بعدم وجود أية عقبات ستحول دون زواجه منها إذا ما هى قبلت.

وكيف لا تقبل ..

فهى تدرك جيداً قدر سيطرتها عليه .. كما أنها ليست فى حاجة إلى وسائل لإقناعه، بل كانت هى تدبر لتلك النتيجة منذ معرفتها به .. ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد فى نظرها. هى تريد سبل إقناع أخرى غير تلك التى يتبعها معها .. تريدها وسائل عصرية تعرف أنها ممكنة مع شخص مثله .. وهى الآن تشعر بأن الفرصة مواتية .. فتنهدت فى زفرة طويلة قبل أن تجيب أحس بها تلفح قلبه بألسنة من اللهب .. ثم قالت:

- فى الحقيقة يا صابر بك .. لست أدرى بماذا أجيبك .. ولكنك تعلم أننى أتعايش على دخل البوتيك وهو فى النهاية سيكون من نصيب أخى سالم.

وهنا تجرأ صابر الجندى قليلاً .. ثم اعتدل فى جلسته قائلاً:

- وما المانع فى ذلك .. فأنا .. أقصد لست فى حاجة لشىء .. و ..

فقاطعته وهى تسبل جفونها:

- ولكن .. أنا فى حاجة للأمان أترضى لى أن أكون للطريق يوماً.

فهزه الوله هزاً عنيفاً مما دفعه إلى أن ينتقل إلى جوارها وفى عينيه حب كبير.

- ماذا تقولين يا ثريا .. صابر الجندى يعيش على الأرض وأنت تحتاجين لأحد يوماً .. تأكدى أنك ..

ولكنها تقاطعه مرة أخرى بصوت هزيل:

- صحيح أن سميرة ونظمى يعاملاننى كأننى أمهما .. ولكن ..

صمتت برهة استغلتها فى اختلاس نظرة سريعة إليه لتتأكد من تأثير كلماتها عليه .. ثم أردفت:

- ولكن زوجتك بدرية .. وولدك شريف الذى أسمع أنه شرس الطباع ومن المستحيل أن يبادلنى نفس الشعور.

غاب صابر لحظات مع نفسه كأنه يسترجع مع كلماتها حقائق كثيرة كانت غائبة عنه .. أو كأنه يتأهب لاتخاذ قرار يحتاج منه إلى شىء من التروى.

وأرادت أن تمنحه تلك الفرصة التى يغيب فيها مع نفسه .. وهى على يقين بأن النهاية فى صالحها .. فهى قد عرفته جيداً .. لا شىء فى الدنيا يمكن أن يحول دون رغباته الشخصية .. عرفت عنه الأنانية والاستهتار .. وأدركت بتغلغلها فى أعماقه بأنه لا يحب إلا نفسه مهما كانت النتائج .. حتى ولو كان ذلك على حساب الآخرين .. من أجل هذا حاولت أن تترك له حق الانفراد بنفسه، فنهضت بهدوء تتصنع انشغالها ببعض ترتيبات جلستها .. ولكن .. جاء الأمر مخيباً لتوقعاتها عندما اختطفت خطواتها نظرته وراح يتابعها بتأمل كبير .. فنسى لحظة الصمت التى أرادها .. ونسى قراره الذى يجب اتخاذه وتناسى حديثها المؤثر .. وغاب فقط مع رشاقة قوامها ..

ودلال خطوتها .. وانسياب شعرها .. وهاجمته فجأة كل كوامن غرائزه التى لا تكتفى أبداً .. وبلا مقدمات فاجأها قائلاً بنبرة متوترة .. ومتلهفة:

- أين سالم .. ومتى سيعود.

التفتت إليه وهى تحاصر دهشتها .. ولم يكن عسيراً عليها أن تدرك ما يعنيه ..فانتصبت فى وقفتها وهى تقترب منه متخذة طريقها إلى مكانها بجواره .. ثم همست:

- لديه موعد مع بعض أصدقائه .. وسيتأخر عن العودة.

تدلت شفته السفلى فى بلاهة كأنه يتذوق كلماتها .. أو يستطعم تصوراته التى اقتحمت خياله.

وما كادت تستقر بجانبه حتى باغتها مرة أخرى يطلب أن تدير رأسها نحوه .. وتفحصته جيداً كأنها تتأكد ما إذا كان قد مسه الجنون أم لا .. حيث بادرها قائلاً:

- أريد أن أشرب شاى.

- شاى ..

ثم أردفت:

- هل تشعر بصداع .. أو أى ألم .

فضحك صابر الجندى .. كأنه يستهزئ من تفكيرها الساذج ..وضرب بكفه على صدره عدة ضربات عنيفة .. ليثبت بأنه لا يزال قوياً .. صحيحاً .. ثم أعاد طلبه مرة أخرى فى إلحاح كبير لم تجد حياله شيئاً غير أن تنفذ ما يريد والحيرة تلعب بعقلها.

وبسرعة خاطفة استطاع أن ينتهز فرصة انشغالها بإعداد الشاى .. واستخرج قطعة العنبر وأخذ منها ما أراد ثم دس الباقى فى جيبه .. ونجح أيضاً فى أن يسقط العنبر داخل كوب الشاى عندما وضعته أمامه ثم تراجع بظهره على المسند وقد سلط عينيه على الكوب كأنه يتوقع تغيرات تطرأ على الشاى قد تفضحه أمامها .. ودون أن يدرى تدلت ابتسامة باهتة على شفتيه عندما تذكر كلمات عم فهمى عن ذلك السحر الذى توصل إليه كهول العلماء.

ومضت الساعات .. لينتهى بعدها صابر الجندى من محتويات الصندوق الكرتونى .. وكوب الشاى الذى أوحى إليه بالنتائج الباهرة .. وكذلك من ليلة رائعة جعلت لعم فهمى مكانة عظيمة فى قلبه.

الثانية صباحاً .. والسكون مسيطر على المنطقة التى خضعت لوشاح الظلام فى جو مهيب .. بينما كان صابر الجندى يجر خطواته فى تثاقل، حيث بات واضحاً تأثير الصراع الذى يدور فى رأسه بين صندوق نيقولا البقال وبين هدية فهمى بائع البخور.



وبدأت نسمات الريح الخفيفة تهاجم رأسه الثقيل فتترنح أمامه جدران المنازل .. وتطبق السماء على الطريق ثم ما تلبث أن تعود مكانها بعد أن تترك خلفها نجوماً خالها ترافقه أمام عينيه فى ابتهاج راقص.

وقد أخذته النشوة بعيداً عن صوت المسحراتى الذى بدأ يشق الصمت بنقراته المعروفة .. وعن بعض الابتهالات الصادرة من المآذن القريبة وراح يتساءل عن سبب تراجعه فى اتخاذ قراره. كأنما تذكر فجأة بأن هناك أمراً ما كان يجب اتخاذ قرار فيه.

.. ما الذى كانت تريده ثرياً .. وأى ضمانات تلك التى ترغبها .. منحتها الحب والأمان .. وهبتها ما تبقى من عمرى وأوقاتى .. لم أبخل قط عليها بأموالى وسأفى بوعدى معها وأرسل نظمى إليها غداً بالمبلغ الذى طلبته .. سأفعل أكثر مما فعلت .. فماذا تريد إذن.

ثم اختصر الطريق متجاوزاً شارع الترعة إلى شارع آخر جانبى إلى مسكنه .. فطواه الظلام من جديد لتقفز حيرته مرة أخرى.

.. أنا أحبها .. بل أكثر من الحب .. فهى عرفت كيف تحطم قيود الملل فى حياتى .. وهبتنى السعادة والإحساس بالحياة .. خمسة وأربعون عاماً وأنا أتقلب مع الشقاء من بائع دقيق فى محل صغير إلى عامل سنترال فى المستشفى .. ذقت مرارة الحرمان بعد تسرب ميراث أبى إلى قنوات ليالى الضياع .. تشردت على المقاهى وتسكعت



بلا هدى على الطرق أعمل يوماً وأجوع عشرة .. فى كل يوم حال .. إلى أن أصبحت فى النهاية هكذا .. أملك المال والصحة .. أنفق ببذخ على الآخرين من حولى .. أريد أن أعيش .. أريد نفسى قبل أن يفقدنى إياها الزمن .. أريد الحب والمتعة .. أريد أن ...

توقف برهة أشعل خلالها سيجارته وجذب منها نفساً عميقاً كأنه يستحوذ على كل الدنيا فى صدره.

.. سأتزوجها .. هى تريد ذلك .. وسأفعل ما تريد .. سأمنحها الضمانات التى تطلبها .. المال والاستقرار والحب .. كل وجودى سأقدمه لها طواعية سأجعل منها أسعد امرأة فى الدنيا .. و..

تصلب فى مكانه فجأة عندما سقطت نظرته على مجموعة من الصبية التفوا حول أحد أعمدة الإضاءة يلعبون الورق حيث اشتد بينهم النزاع حتى انقض بعضهم على رفيقهم يوسعونه ضرباً وسباً .. يا إلهى إنه نظمى .. ابنى.

وأسرع صابر وقد طار صوابه وكل ما فى رأسه من نشوة، واندس وسط المجموعة محاولاً إنقاذ ولده الذى ما كاد يراه حتى أطلق ساقيه للريح فزعاً .. وأدرك الرجل بأن سبب التشاجر هو لعب القمار وبأن ولده حاول الغش فى اللعب.

لم يتمالك صابر الجندى نفسه وأسرع هو الآخر يعدو وراء ابنه وكأنه فى ريعان شبابه .. صارخاً يحثه على التوقف وإلا سينال العقاب مضاعفاً.

وتوقف نظمى وهو مرتجف الأوصال زائغ العينين .. فاقترب منه لاهثاً وقد بدا الشرر متوهجاً فى عينيه .. ثم جذبه من يده بعنف وهو يصيح به:

- هل جننت يا ولد .. كيف تمكث خارج المنزل إلى هذا الوقت.

انكمش نظمى فى نفسه وهو يحاول أن يدس رأسه بين كتفيه حتى يتفادى صفعة متوقعة .. فاستطرد أبوه:

- أجبنى .. ما الذى جعلك تفعل ذلك .. سأريك فى المنزل يا مجرم.

ثم سحبه من يده التى يقبض عليها بكفه وسار به وهو يتوعده بالعقاب عندما يعودان إلى المنزل .. وبأنه سيحرمه من الخروج لمدة أسبوع عقاباً له .. وبأنه سيقطع عنه المصروف .. وذلك بعد أن يلقنه درساً لن ينساه.

ولم يصبر صابر الجندى حتى يدخل إلى شقته واستدار تجاه ولده وهما على السلم وحاول أن يصفعه وهو فى قمة ثورته.

- ما الذى جعلك تخرج يا ولد.

ولكن نظمى لحق بكفه فى آخر لحظة ورد متصنعاً البكاء.

- لقد أضاء شريف الحجرة ليذاكر .. وأنا لا أعرف النوم والمصابيح مضاءة.

ولم تكن الحجة كافية لإقناعه فدفعه أمامه وهو لا يزال يتوعده

بالضرب، وبمجرد دخوله إلى الشقة اندلف إلى الحجرة المضاءة ليجد شريف يجلس على حافة الفراش ممسكاً بكتابه ويقرأ سطوره بصوت مسموع .. وما أن شعر بوجوده حتى انتفض واقفاً وبابتسامة على شفتيه ولكنها سرعان ما ذابت فى حسرة عندما لاحقه والده قائلاً:

- كل وقت وله أذان يا غبى .. وإياك أن تظل مستيقظاً إلى هذا الوقت المتأخر.

وبدون أن يتفوه شريف بكلمة واحدة أومأ برأسه موافقاً ومطيعاً بينما تسلل نظمى إلى داخل الحجرة .. ووقف مترقباً ما سيحدث له وربما لأخيه الأصغر .. ولكنه أطلق زفرة طويلة من صدره عندما تراجع والده منصرفاً إلى حجرته .. ثم التفت إلى شقيقه قائلاً:

نام .. نام .. فأنا مرهق.

ثم غاب فى نعاس عميق.

أما صابر فما كاد ينتهى من تبديل ملابسه .. وألقى بنفسه على الفراش استعداداً للنوم .. حتى اعتدل مرة أخرى كأنما تذكر شيئاً هاماً .. تحرك بعده بخطوات حثيثة متجهاً إلى غرفة أبنائه .. وبهدوء شديد أخذ يلكز نظمى لكزات خفيفة لكى يوقظه .. واستيقظ بعدها مرعوباً ولكنه طمأنه بابتسامة هادئة وأشار إليه أن يتبعه.

وتبعه نظمى إلى غرفته وهو يفرك عينيه التى كانت قد استسلمت لنوم ممتع .. و ما أن اقترب منه حتى فوجئ بوالده وقد

بدا فى صورة مختلفة تماماً عما كان عليه منذ دقائق قليلة .. حيث بادره بهدوء.

- اجلس .. اجلس يا نظمى.

وجلس نظمى بجواره وهو لا يزال يعانى من حالة التوجس والخوف.

فاستطرد صابر:

- أريد أن تمر علىّ غداً فى المكتب .. سأعطيك مبلغاً من المال لكى تسلمه إلى تانتك ثريا.

تسلل الاطمئنان إلى صدر الصبى وبدا أكثر جرأة فى جلسته كأنما تذكر هو الآخر بأن هناك أموراً خاصة تربط بينه وبين والده تقتضى بأن يكون أكثر اتزاناً .. فاتسعت ابتسامته وهو يهز رأسه كما لو كان سيعد خطة خطيرة تحتاج منه لشىء من التفكير.

وقبل أن يسرح مع خياله فى تلك الخطة .. كان صابر الجندى قد تحرك من مكانه وتناول من حافظة نقوده خمسين قرشاً ثم ناوله إياها وهو يقول:

- أعط نصفها لأختك سميرة .. حتى لا تغضب.

- أشكرك يا أبى .. ولكن.

فلاحقه أبوه وكأنما لا تعنيه إجابته:

- لا تنس .. غداً فى العاشرة .. هيا الآن انصرف.

وما كاد نظمى يتخذ طريقه للانصراف حتى استوقفه مرة أخرى وهو يتأهب للنوم على الفراش.

- ولكن ماذا .. ماذا كنت تريد أن تقول.

استدار نظمى إليه فى انكسار ثم أجاب:

- أود أن أقول يا أبى بأن سميرة تحصل أكثر منى فى أحيان كثيرة ثم أنا لدى مصروفات أكثر.. و..

ضحك صابر الجندى من قلبه .. فخوراً بولده الذى بات يطالب بحقوقه وفخوراً بذكائه .. ونشاطه فى مهامه .. فأشار بيده ليصرفه وهو لا يزال يقهقه .. وكانت تلك الإشارة كافية لكى يعتبرها نظمى موافقة ضمنية من والده على أن يستحوذ على المبلغ لنفسه فتركه منصرفاً وتمدد صابر الجندى على فراشه وهو يضع راحتيه أسفل رأسه وغاب فى نظرة طويلة إلى السقف.

ونسى صابر الجندى وعيده الذى انهال به على نظمى منذ وقت قصير .. نسى الدرس الذى لن ينسى .. وحرمان المصروف .. وكذلك الخروج .. نسى لعب القمار الذى ضبطه يمارسه .. وهروبه من المنزل حتى تلك الساعة المتأخرة .. تناسى أنه أب .. تذكر فقط أن عليه وعداً يجب أن يفى به .. يجب ألا ينساه.

وبدأت جفون صابر الجندى تتداعى فى تراخى .. وشعر بسلطان النوم يفرض وجوده عليه، فضغط على مفتاح المصباح ثم أطلق زفرة طويلة من صدره سحبت معها همسة سريعة تسللت من بين شفتيه فى رضاء تام.

- بارك الله فيك يا عم فهمى.

ثم غاب فى النوم.



(٢)

كان صباحاً غير عادى بالنسبة لسميرة .. إنها لأول مرة فى حياتها تشهد مولد الشروق فعادة ما كانت تستيقظ بعده .. أو قبله دون أن يلفت نظرها.

أما اليوم فقد كان شيئاً آخر:

أعظم من البساط السحرى الذى يحلق بمن يجلس فوقه أرجاء الدنيا ليرى العجائب .. وأقوى من الفارس الأسطورى الذى يحصد رقاب الأعادى بضربة واحدة من سيفه .. وأشجع من رجل الأدغال الذى لا يهاب الأسود والحيوانات المفترسة الأخرى .. إنه يوم أعظم من ذلك جميعاً.

فهى ذاهبة لتانت ثريا لذلك باتت ليلتها تتمرغ مع أحلام اليقظة حتى فاجأتها الشمس بشروقها .. فنهضت من فراشها قبل الآخرين .. وقررت أن تنهى واجباتها اليومية ولكن بنفس راضية هذه المرة .. دون أن تذمر أو تمرد كالعادة.

رتبت حجرتها .. وانتهت من تنظيم أطباق السحور .. وتأكيداً لاسترضاء والدتها قامت بتنظيف أثاث الصالة بالرغم من أن ذلك خارج نطاق ما تكلف به كل يوم.

وفى النهاية راحت تعد نفسها للخروج .. ارتدت أحد

فساتينها. واهتمت بتمشيط شعرها .. ثم وقفت أمام المرآة تشد فى قامتها وهى تتحرك فى نصف دائرة تارة إلى اليمين وأخرى شمالاً .. كأنها تسعى إلى أن تزيد من طولها بعض السنتيمترات .. ونجحت فى ذلك حسب تصورها.

وقطعت سميرة الطريق إلى تانت ثريا فى دقائق قليلة .. وقفت بعدها أمام باب شقتها وهى تطرقه بأصابع واجفة. وفى نهاية لحظات يشوبها التوتر انفلج الباب عن سالم الذى بدا منهكا من سهرة الأمس وهو يفرك عينيه ثم أفسح لها الطريق واستدار قائلاً فى فتور:

- أهلا سميرة .. تفضلى .. تانتك ثريا ما زالت نائمة.

ثم التفت إليها وهو لا يزال فى طريقه إلى غرفته.

- أجلسى قليلاً حتى تستيقظ.

وغاب عن نظرها.

وجلست سميرة على أقرب مقعد بجوار الباب وقد شحب وجهها .. وانطفأت بهجة أعماقها .. وقد اعتراها الوجوم .. و .. الذهول.

.. تراه نسى وعده لى .. أين إلحاحه فى استقبالى بالأمس .. وصور المشاهير والمجلات .. أين مداعباته الرقيقة .. أكان يسخر منى .. لست أدرى.

وهى حقاً لم تكن تدرى.

فمن المؤكد أنها لا تمثل بالنسبة لسالم شيئاً يزيد عن كونها صبية تهدهدها مشاعر المراهقة ويحلو له أن يستنفر تلك المشاعر من حين لآخر.. ولكن فى وقت فراغه فقط.

كان سالم مفتول العضلات .. قوى البنية .. وسيماً .. حاد النظر والطباع .. استطاع من خلال الوقت الذى يقضيه فى بوتيك شقيقته أن يكون علاقات عديدة ومختلفة .. بعضها خاص بتجارته مع المهربين والمهربات كل حسب موقع عمله .. والآخر من أجل سهراته الخاصة .. ونزواته .. وهو سعيد بحياته .. أو أنه لا يملك أن يكون غير ذلك .. فشقيقته تتنازل له عن الجزء الأكبر من دخل البوتيك، بل وتنقذه فى كثير من الأحيان عندما يفقد رصيده مع الليالى الحمراء وعلى الترابيزة الخضراء فى لعب الورق.

وهو راض عن حياة أخته .. وعلاقاتها .. وخاصة بذلك الصيد الثمين الذى يدعى صابر الجندى .. رجل الثراء والغباء .. كما كان يصفه مع نفسه.

ومضى الوقت مملاً على سميرة التى اتخذت قرارها بالانصراف.

وما كادت تفعل حتى تراجعت عندما خرجت عليها ثريا وبدت وكأنها قد أوقظت مضطرة هى الأخرى .. ولكن .. سرعان ما انفرجت أسارير وجهها .. واستقرت ابتسامة عريضة على شفتيها:

فسميرة هى ابنة الغالى:

وتقدمت ثريا تجاهها وهى تردد كلمات الترحيب والأعزاز .. بينما لحقت بها سميرة مستسلمة لقبلاتها ولكلمات إطرائها .. ثم جلست بجوارها فى استحياء وقد دب النشاط من جديد فى كيانها الصغير .. وخاصة عندما همست إليها الأخرى قائلة:

- كنت سأغضب كثيراً إذا لم تحضرى اليوم.

ونقلتهما الساعات من حديث إلى آخر .. ومن حجرة إلى حجرة .. كما انضم إليها سالم بعدما اكتفى من قسط النوم ولم يجد ما يفعله هو الآخر فى عطلة البوتيك غير أن يبدأ مداعباته التى تصورتها لن تعود.

واطلعت على صور الفاتنات .. وتوقفت كثيراً أمام المايوه ذى القطعتين وأمام صورة للقطة سينمائية تجمع بين حبيبين .. وضحكت من قلبها لنكات سالم الخارجة وتلميحاته .. وازدادت إعجاباً بثريا التى تفعل ما تشاء أمام أخيها دون خوف .. رأتها تشرب السيجارة .. وترتدى قمصان النوم العارية .. وتضع ساقاً على أخرى أمامه دون أن يضربها .. كما يفعل شريف معها .. تمنت أن تكون مثلها .. وأن يطول الوقت معها.

وامتد الوقت وازدادت انتشاء وهى فى كل لحظة تتلقى المزيد وتستمتع به .. بأقاصيص الحب والمغامرات الخاصة بسالم .. فارس الأحلام .. وبالندية التى تشعر بها وسطهما .. و .. وانتبهت فجأة على سؤال تانت ثريا.

- أتحبينى يا سمارة:

بسرعة أجابت:

- أحبك يا تانت .. أحبك كثيراً جداً.

وكأن ثريا أرادت أن تطمئن على استفسارات عديدة تدور بخلدها فربتت على وجنتها الخجلى .. وتساءلت:

- أتفضلين أن تمكثى معى أطول وقت.

هزت سميرة رأسها بالإيجاب وهى تختلس نظرة خاطفة إلى سالم الذى كان يتابع الحديث دون اكتراث.

تمنت لو بدر منه تعليق .. ولكنه لم يفعل.

ولاحقتها ثريا كما لو كانت قد قررت بالفعل أن تكشف عن أمور غامضة.

- آه يا سماره لو أنك مقيمة معى .. لكنت جعلت منك أجمل فتاة فى الدنيا .. تلبسين على الموضة .. وتشتركين فى النادى .. وأطوف بك الأماكن فى رحلات أسبوعية .. وأذهب بك إلى المسرح .. و ..

ثم التفتت إليها فى نظرة جريئة مستطردة:

- ألم تذهبى للكوافير من قبل؟

رفعت سميرة يدها إلى شعرها تتحسسه .. وقد هزها تساؤل ثريا بعنف ثم أعادتها كما كانت فى تراخ .. وأجابت:

- ماما ترفض .. وتقول أنها لم تذهب فى حياتها إلى الكوافير .. كما أنها تتصورنى طفلة إلى الآن .. و..

ولكنها أمسكت عن الكلام أمام ضحكة ثريا المجلجلة وهى تضرب كفاً بكف .. ثم اتجهت بنظرها إلى شقيقها سالم .. ورددت:

- أسمعت يا سالم ماذا تقول سماره.

وانتقلت بسرعة إلى سميرة من جديد فى نظرة فاحصة:

- ما هذا .. ألا ترى أمك ذلك القوام الجميل .. والشعر الأسود الناعم .. والصدر البكر.. الذى ..

ثم واصلت ضحكها بينما دست سميرة وجهها بين كفيها خجلا كأنها تخفى نفسها من كلمات تانت ثريا الجريئة .. وهى فى الحقيقة تخفى عينيها من نظرات سالم التى كانت تلاحق ذلك الوصف على جسدها المصاب بقشعريرة الخجل والاضطراب.

ولكم كانت سميرة تتمن أن يتوقف الزمن طويلاً وهى على هذا الحال لولا إصرار الشمس على الرحيل .. حيث بدأ الغروب يزحف إلى المساء وتعلو أصوات المآذن تمهيداً لمدفع الإفطار.

وأى إفطار.. وأى مدفع.

فسالم أصر على أن تشاركه الغذاء .. وتانت ثريا التهمت أكثر من علبة سجائر فلماذا لا يتوقف الزمن.

ولكنها فى النهاية اضطرت للاستئذان لكى تنصرف .. على أمل العودة كلما سمحت الظروف .. وانصرفت وهى تحمل وعداً جديداً من تانت ثريا بأنها ستحدث أباها صابر الجندى بشأنها وتجعله يوافق على زيارتها مرة أخرى .. بل ودائماً.

وبدت سميرة كالمسحورة وهى على الطريق .. عائدة .. كل شريان فى جسدها كان ينبض فرحاً وهى تسترجع مع خطواتها أحداث ذلك اليوم الرائع الذى كشف لها عن أسرار كثيرة غامضة عن نفسها ومفاتنها .. وشعرها الذى فى حاجة للكوافير .. وقوامها الذى ينتظره المايوه ذو القطعتين .. والرحلات .. و..

ولكنها توقفت فجأة وكاد أن يتوقف قلبها معها .. اصطدمت نظرتها بأخيها شريف الذى بدا هو الآخر مذعوراً عندما رآها تخرج من البوابة الخارجية لمنزل لا يعرفه.

تسمرت فى مكانها وهو يقترب منها متجهماً .. ثم قال:

- أين كنت .. ومن تعرفين فى هذا المنزل.

خارت مقاومتها .. وارتعشت شفتاها .. أحست بأن أحشاءها ستنفجر بين اللحظة والأخرى .. ثم انتفضت لصوته مرة أخرى:

- أجيبى .. أين كنت؟

- أنا .. أنا كنت .. كنت عند صديقتى.

لاحقها والشرر فى عينيه.

- من .. من هى؟

تسللت دمعتها من الخوف .. وراحت تهذى بكلمات غير مفهومة .. وغير مقنعة .. وشعرت أن شريف لا محال سوف يدرك الحقيقة .. فقد يفكر فى الصعود معها إلى صديقتها للتأكد و .. و ..

وانتبهت مرة أخرى لصيحته:

- ألن تقولى الحقيقة .. إذن ..

وهم بصفعها .. ولكنها تراجعت وهى تردد:

- سأقول .. سأقول .. ولكن أرجوك لا تقل شيئاً لأبى .. سأقول كل شىء .. لكن ..

تلفتت حولها: كأنها تتأكد من أن لا أحد يسمعها .. أو أن سالم لا يراها فى ذلك الموقف المهين .. وأردفت.

- لكن ليس هنا .. سأقول كل شىء فى البيت.

وفى داخل غرفة نوم شريف جلست سميرة لتقص عليه كل شىء.

أخبرته بقصة تانت ثريا مع أبيهم .. وبأن نظمى على علم بما يحدث .. أخبرته عن طيبة قلب تانت ثريا .. وعن حسن أخلاقها .. وكذلك عن حبها الكبير لها ولنظمى .. وعن أشياء كثيرة.

بينما وقف شريف أمامها مشدوها .. متشككاً فيما يسمع .. وفيما يتصور، ولكن الأمر لا يحتمل الشك .. وهو يراقبها بنظرة زائغة كأنه يسترجع تصرفات أبيه معهما .. ومعه .. ومع والدته .

شعر بأن لحظة واحدة سيمكثها قد تكشف أحاسيس القهر والضعف أمامها .. حين اقتحمت دمعة ضالة بين جفنيه .. حائرة .. كأنها ترغب فى الانتحار فوق وجنتيه .. حاول أن يتمالك .. ولكن قلبه الصغير لم يكن فى استطاعته أن يوقف نزيف الحسرة فى أعماقه .. فاستسلم لتلك الدمعة وهو يتراجع فى انكسار منصرفاً.

ولكنه ما كاد يفعل حتى خيل إليه انه يعايش كابوساً موحشاً غافله فى انقضاضة خانقة على صدره .. أو انه يعيش لحظة زمن عنيدة اعتصرته بين رحى العذاب .. بل ما هو فوق العذاب.

حيث وجد نفسه وجهاً لوجه أمام والدته التى وقفت ساكنة دون حراك كأنها تحجرت مع تلك اللحظة.

وانفلتت من بين شفتيه همسة مكتومة.

- أمى.

سارعت بعدها سميرة لتنزوى فى ركن الغرفة والخوف يملأ عينيها .. بينما استجمع شريف أوصاله بصعوبة فى محاولة للتأكد مما إذا كانت أمه قد سمعت شيئاً .. وحينما أراد أن يتفوه بكلمة واحدة وجد نفسه يبتلع حروفها عندما لاحقته الأم قائلة:

- هيا يا شريف .. وأنت يا سميرة .. الطعام معد .. ألا تسمعان آذان المغرب.

ثم استدارت بثبات شديد وكأن شيئاً لم يكن.

التف الجميع حول مائدة الطعام بالإضافة إلى نظمى الذى جاء مهرولاً كالعادة ونقل إليهم بأن أبيه سيلبى دعوة للأفطار مع بعض الأصدقاء.

كان شريف يراقب أمه خلسة بين الآونة والأخرى .. إحساسه البرئ يصر على أنها قد سمعت كل شىء .. ولكن ما يراه ينفى ذلك .. فهى هادئة كعادتها .. صافية العين . حانية فى طيبة .. طبيعية فى تصرفها فهى ما زالت كعادتها تقسم بأن يتناول من يدها قطعة لحم إضافية .. أو تطمئن على أن سميرة قد أكملت حساءها أم لا .. وأن تقتطع من نصيبها من أجل نظمى.

كانت كما هى .. بالنسبة لهم جميعاً .. الأم التى تجتر العذاب فى صمت عجيب لتصنع منه وشاح حنان يدفئهم فى ليالى الصقيع .. الأم التى تتنازل عن هبة النوم إلى عيونهم لرعايتهم أثناء الليل .. كانت كما هى .. لا شىء يدل على تذمرها .. ولا على ثورتها.!

لعلها لم تسمع ...

لعلها لا تهتم ...

ربما كانت تعلم ...

كلها تساؤلات دارت فى أعماق شريف .. لازمته طوال بقائه أمامها .. ولم يستطع التخلص منها وهو يشارك الليل فى صحوته وسط غطيط نظمى.

لم يستطع شريف أن يصرع هجوم الأرق .. بل لم يحاول ذلك فالليل قد تجاوز منتصفه بكثير .. والصمت بات مزعجاً بالنسبة إليه أكثر من ضجيج شارع شبرا .. والحيرة استطابت سنوات عمره القليلة وراحت تلهو به كما يحلو لها .. راوده خاطر جنونى بأن يذهب إليها ويسألها إن كانت سمعت أم لا .. ولكنه سرعان ما تراجع عنه خوفاً من أن يكشف حقيقة قد تكون حقاً غائبة عنها.

اختطفه النوم لدقائق قليلة .. انتبه بعدها على أصوات متداخلة .. كأنها آتية من عالم آخر بعيداً عن عالمه .. كأنه يحلم.

استرق السمع وهو يتكئ على مرفقيه .. كان الصوت لأبيه وأمه واضحاً وضوح توترهما.

وسمع ما لم يسمعه قط من أبيه .. وما لم يتوقعه من أمه .. حيث انبرت لأول مرة فى حياتها تدافع عن كرامتها .. وتطالب بحقوق إنسانيتها التى خيل إليهم يوماً بأنها بلا حقوق. ثم كشفت له عن الحقيقة التى أدركتها منذ سويعات قليلة.



كما سمع والده وهو يصيح بنبرته المخمورة:

- أتتجسسين علىّ يا امرأة؟

- أنا لم أتجسس عليك .. ولكن أريد أن أعرف الحقيقة.

وفى غضبة ارتجفت لها أوصال شريف .. واصل الأب كلماته فى تحد.

- أتريدين معرفة الحقيقة .. سأذكرها لك .. الحقيقة أننى عشت عشرين عاماً أضاجع الاشمئزاز .. وأتعايش مع الملل .. الحقيقة أننى دفنت شبابى وحريتى فى مقبرتك .. والآن جاء دورى لكى أنعم ببقية عمرى .. و ..

وتقاطعه الأم بنبرة هستيرية.

- إذن فما سمعته عن علاقتك كان حقيقة .. وأنك تخدعنى طوال هذه السنوات .. و .. ولاحقها بمزيد من التحدى .. والخمر تلعب برأسه:

- أنت امرأة مخرفة .. تتوهمين أموراً تتناسب مع جهلك.

ومن خلال ثورتها صرخت فى وجهه قائلة:

- أنت الذى فقدت وجودك وهيبتك بداء الأنانية، وأحمد الله أنه أراد أن يكشفك أمام أطفالك .. وأن يجعلنى أعرف الحقيقة من خلال حديث شريف وسميرة بعد أن علم بأمر استغلالك لها ولنظمى.

مضت لحظات صمت رهيبة .. انتفض بعدها شريف واقفاً فى منتصف غرفته وسط الظلام وكل نبضة فى كيانه ترتجف هلعاً عندما ترامى إلى أذنيه صوت أبيه قائلاً:

- إذن هو شريف الذى ..

ولكنه صمت برهة .. احتبست أنفاس شريف معها .. ثم استطرد:

- أنصتى جيداً .. مادمت قد اكتشفت الحقيقة .. فعليك أن تعلمى كل شىء بوضوح .. سأتزوج ثريا .. نعم سأتزوجها مهما كان الأمر .. رغماً عنك .. وعن شريف؟. وعن الدنيا كلها .. أفهمت .. سأتزوجها .. سأتزوجها.

ثم أسرع منصرفاً وهو يردد: سأتزوجها.

وأغلق الباب بعنف .. سقط معه قلب شريف الحائر.

كان السكون أميناً فى نقل أنات الأم المسكينة وهى تحاول أن تكتم آهات اللوعة فى صدرها .. بينما استسلم شريف مقهوراً لأحاسيس الحزن العميق من أجل والده خوفاً عليه من أن يصيبه مكروه وهو فى ثورته .. ومن أجل أمه التى واجهت مرارة الحسرة بلا ذنب اقترفته.

وراح فى بكاء أحسه يمزق جفنيه بعدما ألقى بنفسه على الفراش كأنه يستقطب كل العذاب بعيداً عن والديه.

هو نفسه لا يعرف لماذا يبكى !!

أهو يبكى من أجل أمه الطيبة الحنون التى اكتشفت خديعة زوجها وخيانته لها.

أم كان بكاؤه لأجل والده الذى رآه لأول مرة فى حياته يثور تلك الثورة التى كادت توقف نبضات قلبه .. فبكى خوفاً عليه.

أهو يبكى على نفسه؟

لم يستطع شريف أن يعرف لبكائه سبباً .. لم يدله قلبه الرقيق على شىء .. ولا عقله الذى ما زال يحبو على أول طريق حياته.

راقب تسلل خيوط الفجر وهى تشق الظلام .. كأنه يبحث عن الحقيقة فى الأفق .. فى أعماقه .. و .. فى غرفته.

تحرك إلى غرفة والدته .. شعر بحاجة كبيرة إلى أن يقترب منها لعلها تقبل اعتذاره .. أو تصرخ فى وجهه .. لعلها تحتضنه إلى صدرها .. أو تصفعه عقاباً له.

تمهل قليلاً أمام غرفتها .. التقط أنفاسه وهو يدخل إليها فى تثاقل .. ولكنها نائمة.

تسلل إلى جوارها برفق .. حاول أن يوقظها .. همس يناديها .. مسح بكفه على يدها بحنان .. ارتفع صوته قليلاً .. هزها برقة.

ولكنها لم تجبه .. ولم تتحرك.

لقد ماتت.

انقلبت صرخته إلى أعماقه .. باتت أطرافه كالثلج .. تصلبت شفتاه وجحظت عيناه فى ذعر، وهو يحرك لسانه فى فراغ حلقه .. يريد أن يناديها .. يريد أن يسمعها صوته .. يريد أن ..

- أمى .. لا .. لا تموتى .. لا يا أمى .. لا تتركينى.

تراجع والرعب يملأ قلبه .. حاول أن يبكى .. ولكنه لم يستطع .. أراد أن يهرع إلى أخيه ولكنه تسمر فى مكانه مقهوراً وكأنه قد أصيب بالشلل.

كان يفرج شفتيه فى محاولة للصراخ .. ولكنه لم يفلح .

اندفع إلى أخيه المستسلم للنوم .. لكزه بعنف وهو يصرخ .. ثم اتجه إلى غرفة سميرة .. هزها بشدة وهو بنفس الصرخة.

- لقد ماتت .. أمى ماتت.

ثم يعود مهرولاً إلى غرفة أمه .. ولكنه لا يقوى على الدخول فوقف على بابها .. ولم تحركه دفعة نظمى القوية وهو يتجاوزه إلى أمه صارخاً .. ولم ينتبه لسميرة وهى تلقى بنفسها على صدرها مولولة.. تملكه التبلد وقلة الحيلة .. لم يعد يقدر على شىء مطلقاً.

وصلت إلى أذنه كلمات سميرة وهى فى صراخها:

- أنت السبب.

أعادتها ثانية وثالثة .. وهو يقف جامداً كالصخر .. صامتاً فى ذهول .. عيناه غائبة مع الراقدة فى سلام .. قلبه يتخبط بين أضلعه ملتاعاً .. كيانه بات غريباً عن إرادته.

ولكن .. يجب أن يفعل شيئاً.

أى شىء .. يبكى أو يصرخ .. يرتمى على صدرها الساكن .. يصعد للسماء أو تبتلعه الأرض .. يجب أن يفعل شيئاً.

يناديها لعلها تستيقظ من غفوتها .. أو يحطم أى شىء حوله .. يسخط أو يلعن .. أو .. يموت.

وفجأة تحركت ساقاه .. انطلق خارج المنزل .. جرى فى سباق مع غيوم الفجر .. كان يتلفت وراءه كأن الخوف يلاحقه .. الخوف يطارده. وفى أعماقه .. وأمام عينيه .. جرى دون كلل أو تعب وكأن أرجله النحيفة قد تحولت إلى قضيبين من الفولاذ .. اخترق الشوارع من مكان إلى آخر .. بلا هدف.

لم يعد راغباً فى البكاء أو معرفة ما حدث .. ولا يريد أن يعرف إلى أين سيذهب.

يريد أن يبتعد فقط .. و .. سقط بعنف على وجهه .. كان لابد أن يسقط بعد ساعتين من الجرى المتواصل، ثم رفع رأسه إلى السماء وهو يلهث بقوة .. وما كادت نظرته تصطدم بالقرص المتوهج حتى

نهض مسرعاً كأنه يخشى أن يكشف موقعه .. ثم واصل رحلة العدو من جديد.

وفى النهاية لم يجد مفراً من أن يتوقف مضطراً، حيث لم يعد فى مقدوره أن يخطو خطوة واحدة .. ولم تعد قدماه قادرة على حمله .. فجلس تحت أقرب شجرة من أشجار الزمالك الكثيفة واستند بظهره على جذعها وهو يضغط بكفه على صدره الذى بات يعلو وينخفض فى تلاحق عجيب.

أغمض عينيه فى محاولة لتذكر ما حدث، فتسلل مع محاولته صوت أبيه وهو يقول:

- إذن هو شريف الذى ..

ومن وسط صدى صرخات الأمس قفزت إلى مخيلته كلمات أخته.

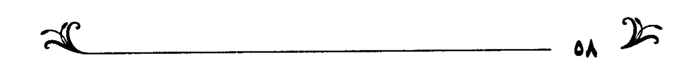
- أنت السبب.

تلفت حوله فى نظرة هلعة كأنه يتوقع مطاردته ثم راح يستطلع فوقه الأفرع المتشابكة والأوراق الكثيفة التى جعلته يجلس على دائرة من الظل الرطب .. بعيداً عن لسعة الشمس .. ودون أن يدرى غافلته دموعه المستعصية وانسابت من بين جفونه كأنها اطمأنت إليه كما اطمأن هو لأفرع الشجرة الكثيفة التى استسلم لرعايتها .. كما كانت ترعاه أمه.



وبكى شريف لأول مرة بعد عناد الدمع .. وكذلك سمع صوته وهو يردد بأسى.

- أمى .. لماذا تركتينى وحدى.



(٣)

استقرت الشمس فى كبد السماء، وتصادف أن يكون ذلك الكبد فوق رأس شريف تماماً الذى بدأ يتململ تحت أشعتها الملتهبة لتوقظه بعد إغفاءة طويلة استسلم خلالها لنوم عميق.

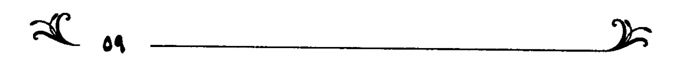
إلى أين ..

تساءل مع نفسه وهو يواصل سيره متنقلاً من طريق إلى آخر .. وبدأت تصوراته تحدد له خطورة تصرفه .. فهو لا يعرف أحداً .. ولا حتى اسم المنطقة التى يتجول فى شوارعها .. لم يتعود على رؤية أقارب له لكى يلجأ إليهم .. وخاصة بعدما فرض والده حصاراً على نفسه بعيداً عنهم .. وتعالياً عليهم.

إلى أين؟

وهو بلا نقود ولا خبرة .. بلا رفيق ولا هدف .. لا يعرف كيف يفكر وفيما يفكر .. يطاوع خطواته التائهة بلا إرادة.

كانت الزمالك بالنسبة إليه بلاداً بعيدة .. شعر بأنه قد اغترب فجأة إلى حيث المجهول .. فشوارعها لا يخترقها الترام .. ولا تتسابق عليها عربات الكارو .. عالم غريب عنه .. استوطن فيه ذلك النهر الجبار الذى عرفه من خلال الكتب .. ومشاهدته لبعض الأفلام.



إلى أين ..

والعودة باتت مستحيلة .. أبوه سيقتله .. إخوته سوف يتبرأون منه .. لعنات أمه ستلاحقه فى كل مكان .. زملاء المدرسة سوف يسخرون منه .. سيتهمونه بقتل أمه .. الجيران حتماً سيصبون كراهيتهم عليه .. والملائكة لن ترحمه .. والأرض ستبتلعه لتطحنه فى أعماقها .. والسماء ستطبق على صدره .. والليل لا محالة سوف يدمره .. سيسحبونه إلى المحكمة، ويحكم القاضى بسجنه .. لن يعود أبداً .. و .. كان قراره بالبحث عن عمل.

ساقته خطواته المتهالكة إلى سوبر ماركت ولم يفلح فى الحصول على عمل .. دخل شركة تأمين ولكن الشركة ليست فى حاجة إلى سعاة .. حاول عرض خدماته على محل جزارة ولكنه تلقى ما يكفى من السخرية عليه .. صعد إلى أحد المكاتب الاستشارية فأخبروه بأنهم بحاجة إلى مهندسين فى تخصص آخر غير تخصصه .. دلف إلى داخل مخبز كبير، ولكنه سرعان ما تراجع عندما رأى رجالاً أصحاء أشداء يقاومون لفحة لهيب الأفران .. فأدرك أنه لن يفلت من الانصهار .. تردد أمام بوابة إحدى السفارات الأجنبية لعله يجد بها عملاً ولكنه ترنح فى هرولته عندما نهره الحارس ليبتعد بعيداً.

وبدأ الظلام يقتحم الأفق .. وازداد معه الغموض فى صدره وأمام عينيه .. قرصات الجوع تهاجم أمعاءه من حين لآخر .. ساعات

طويلة لم يذق فيها طعاماً .. وكذلك دون أن يروى عطش حلقه وجفاف شفتيه .. بدا متهالكاً تماماً فما كاد أن يجلس القرفصاء برهة حتى ينهض مرة أخرى خوفاً من أن يلفت نظر الآخرين إليه.

وكان غريباً على نفسه ذلك الإحساس الذى منحه شيئاً من الاطمئنان عندما سحبته قدماه إلى شارع جانبى قد أحيطت به ظلمة الليل والأشجار المورقة من كل جانب .. وسيطر السكون الموحش عليه .. ولكنه بالرغم من هذا أحس بالطمأنينة تتسلل إلى صدره .. فربما لأنه وجد نفسه وحيداً على طريق طويل لا يخطو عليه أحد قد يزعجه بسؤاله .. وربما لأنه اكتشف مأوى يأوى إليه طوال ساعات الليل بعيداً عن العيون .. أو أن اليأس قد تملكه فتصوره اطمئناناً.

وفى منتصف الطريق تباطأ قليلاً عندما اقترب من جراج كبير قد تراصت بداخله وأمام بوابته العديد من السيارات .. توقف ليستطلع الأمر .. ثم اتخذ طريقه إلى داخله وهو يتوقع فى كل لحظة أن يكتشف أحد أمره .. وبسرعة ساعدته عليها نحافة قوامه دلف إلى داخل سيارة كبيرة وتقوس على مقعدها الخلفى فى محاولة للتخفى.

حاول أن يسترق السمع وأن يستجمع شتات فكره من جديد ليستطيع تدبر أمره .. ولكن .. كان سلطان النوم أقوى بكثير من محاولاته .. و.. غاص فى رقاد عميق.

لم يدر شريف كم من الوقت مضى عليه .. دقائق أو ساعات .. أم أنه لم ينم مطلقاً .. فكل ما أدركه هو أنه انتفض مذعوراً على قبضة قوية على عنقه حتى كادت أن تفصله عن باقى جسده .. ورحلت مقاومته كما رحلت ظلمة الليل .. وهو مستسلم للنهرات العنيفة التى كانت تلاحقه مصحوبة بصوت أجش.

- ماذا تفعل هنا يا لص؟

استطاع شريف بصعوبة أن يتبين صاحب القبضة ليجد أمامه كياناً ضخم البنية وعينين جاحظتين فى قسوة وريبة .. وقبل أن يتفوه بحرف واحد لاحقه الرجل وهو يجذبه خارج السيارة .. فتعلق بساعده المتصلب .. ثم سقط على الأرض كأنه عصفور صغير فى يد صبى عابث.

- ألن تجيب يا ابن الـ...

ثم راح يركله بقدمه فى كل جزء من جسده الذى بات يتلوى من شدة الألم.

وصرخ شريف صرخة مدوية عندما أصابت إحدى الركلات وجهه.

وكأن الرجل قد استطاب هذا الموقف لنفسه أو داعبه إحساس بالقدرة وهو يفعل بذلك الصبى ما يريد .. فيرفعه تارة ويسقطه أخرى

.. أو يثنى ذراعيه بقوة ويضغطها على مؤخرة رأسه .. وشريف يواصل صرخاته متوسلاً .. و.. مستغيثاً.

أرجوك اتركنى .. أنا لست لصاً .. أرجوك أن ..

ولكنه توقف عندما اندفع نحوه بعض من وصلتهم صرخاته .. واحتشدوا حوله .. كل منهم يسعى لمعرفة الحقيقة .. بينما الحارس المتباهى يجيبهم بثقة .. منتشياً لتساؤلاتهم .. كأنه يريد أن يتجمع كل سكان المنطقة ليروا بأنفسهم كفاءته العالية .. وتفانيه فى عمله .. فها هو ذا يقبض على لص السيارات الخطير.

وبدت الهمسات تنتقل كالبرق.

- لابد أنه يعرف الكثير عن السيارة التى سرقت الشهر الماضى.

ويتدخل آخر قائلاً:

.. ألا ترون ملامح الإجرام على وجهه.

ثم يصفعه شاب قد لمح صديقته تتابع الأمر من نافذتها.

.. قل يا مجرم من هم شركاؤك.

وانشغل الحارس فى سرد القصة بالطريقة التى رسمها مع أحلامه .. وذكر بأنه رأى شريف يتسلل فى تلصص .. فراقبه .. ولكنه أرجأ القبض عليه عندما لاحظ وجود شخص آخر معه أعطاه بعض

التعليمات وانصرف .. فآثر الانتظار لعله يعود، ولهذا ظل طوال الليل ساهراً يراقب تحركات اللص .. وعندما تأكد من عدم عودة الآخر انقض عليه ليسلمه للشرطة.

ثم صمت فجأة منتظراً كلمات الإعجاب .. والإطراء لشجاعته وحسن أداء واجبه .. ولكن لم يحدث شيء مما انتظره فاستشاط غضباً مرة أخرى على شريف كأنه يؤكد سيطرته على اللص .. ولعله يسمع ما يريد.

ولكنه ما كاد ينتهى من الصفعة الأولى حتى توقف عن الثانية عندما ترنح شريف وسطهم .. وسقط مغشياً عليه.

وبدأت تنهال على رأسه شلالات الماء من خراطيم غليظة أو أوان معدنية .. وآخرون يتناوبون ملء الدلو وصبه عليه ليستعيد وعيه .. ومحاصرته من جديد.

- لن نتركك إلا إذا أرشدت عن العصابة.

وبصعوبة بالغة .. أجاب شريف.

- أقسم لكم أننى لست لصاً .. أنا شريف الجندى .. و..

فقاطعه أحدهم بلكزة عنيفة .

- ومن يكون شريف الجندى .. ابن اللورد كرومر.

وسارع آخر بالفتوى كأن قد عز عليه ألا يتدخل.

-أقترح تسليمه للشرطة.

وهنا صاح الحارس مستنكراً.

- أبداً .. لن يحدث هذا قبل أن أكشف عن غموض العصابة.

ومن وسط الجمع كان بائع الحليب هو الآخر قد ترك دراجته على باب الجراج وراح يشق طريقه ليرى ما يحدث كالآخرين .. وربما يكون هو الوحيد الذى تملكه الإشفاق على ذلك الصبى الذى خارت قواه تماماً .. وطفحت على شفتيه خيوط الدم أثر اللكمات المتتالية من كل جانب.

وشعر بالعطف أكثر عندما سمعه يسرد قصة بحثه عن العمل وكيف لم يجد غير السيارة لكى ينام بداخلها حتى الصباح.

فدنا منه قليلاً وهو يربت برفق على كتفه متسائلاً:

- أتقول الصدق يا بنى؟

وما كاد يسمع شريف أول كلمة حنونة حتى تعلق بصدر الرجل محتمياً به وهو يردد:

- أقول الصدق والله .. ليتك تنقذنى .. فأنا لست لصاً .. أنا ابحث عن عمل فقط .. ولا أعرف أحداً هنا.

- إذن أخبرنى .. من هم أهلك .. وأين تقيم أو يقيمون.

وصمت شريف كأنه فوجئ بذلك السؤال .. أو كأنه تذكر فجأة بأنه يجب أن يكون منتمياً لأسرة .. وعليه أن يذكر الحقيقة كاملة .. وهو أمر ليس باليسير عليه.

فقد يعيدونه إلى والده .. أو يلعنونه هم الآخرون.

فترك نفسه للبكاء من جديد.

فضمه الرجل برفق:

- لا تخف .. لا تخف يا بنى .. ولكن عليك بذكر الحقيقة.

وكانت لحظة فوق كل تصوراتهم .. وأعظم من كل الاحتمالات عندما فاجأهم شريف متخلصاً من يد بائع الحليب الرحيمة .. وأطلق ساقيه للريح كالسهم.

فكان الخوف أسرع منهم .. والرعب الذى يملأ صدره يفوق إرادتهم للحاق به .. وبدأ اليأس يدب فى صدورهم الواحد تلو الآخر وهم يتابعونه لكى يفتكوا به .. حتى اطمأن أنه أصبح حراً طليقاً فتوقف عن الجرى وهو يلهث بعنف وعيناه زائغتان حوله إلى كل اتجاه.

ولم تعد قدماه قادرتين على حمله .. ولا هو قادر على مقاومة إرهاقه .. ولم يجد مفراً من أن يستريح قليلاً .. فجلس على حافة رصيف المشاة منكمشاً فى نفسه لعله يستطيع مواصلة السير بعد أن يلتقط أنفاسه قليلاً.

ومضت دقائق ثقيلة .. تحامل بعدها على نفسه ليواصل السير.. كان كالمسحور وهو يأخذ طريقه من جديد.

كأنه يرغب فى أن يمسكوا به .. لعلهم يعيدونه إلى أهله .. أو يجد لديهم قطعة خبز يخمد بها لوعة الجوع .. أو لعله يجد فراشاً وراء القضبان إذا سجن .. كان بلا إرادة .. مسلوب الفكر .. لا شىء كان قاسياً عليه أكثر من عذاب أحشائه وهى تطحن الفراغ .. أو من أنات جسده المتهالك.

وبالقرب من أول الطريق المؤدى للجراج توارى خلف أحد أعمدة الكهرباء، وهو يدقق النظر بحذر شديد .. كأنه يبحث عن شىء يخصه.

كان يبحث عن الأمان والحنان .. وقد أحسهما فى صدر بائع الحليب .. وأدرك بصباه البرىء أن اليد التى تحنو لا تعرف للقسوة طريقاً.

وكم أسعدته اللحظة التى رأى فيها دراجة الرجل وهى مستندة على أحد جدران المنازل .. ولم يطل انتظاره كثيراً حتى شاهده يعدو إليها وينتقل بها من منزل إلى آخر وفى كل مرة يقترب منه أكثر، حتى أصبح على بعد بضع خطوات قليلة منه.

وما كاد الرجل يتجاوزه بدراجته قليلاً حتى أسرع إليه منادياً بصوت خائف .. مضطرب.

- يا عم .. يا عم.

التفت بائع الحليب إليه. وقد تملكته الدهشة تماماً وهو يسرع إليه قائلاً:

- أنت.!!

ثم ترجل من فوق دراجته وهو لا يزال لا يصدق عينيه واقترب منه مستطرداً:

- لماذا هربت .. وكيف؟

فقاطعه شريف وهو يكاد يسقط من الإرهاق:

- خشيت أن يتهمونى بالسرقة .. و ..

فلاحقه الرجل:

- ولماذا عدت إلى .. وانتظرتنى.

- لأننى شعرب بأنك تصدقنى.

تلفت البائع حوله .. ثم قال:

- ما اسمك

- شريف .. اسمى شريف الجندى

وضع ذراعه على كتفه وهو يدفعه برفق للسير بجانبه .. كأنه يرغب فى أن يبتعد به عن المكان قائلاً:

- أنا اسمى الحاج أمين .. ولى ولد يكبرك بسنوات قليلة .. ولقد عرفت منذ الوهلة الأولى بأنك لست لصاً .. و ..

ربت على كتفه برفق .. ثم أردف.

- كما أن اللص ياشريف لا يعود إلى المكان الذى انكشف أمره فيه .. ولكن عليك أن تروى كل شيء .. إذا كنت حقاً تطمئن لى.

وروى شريف للرجل كل شيء..

ابتداء من قصة المرأة الأخرى فى حياة أبيه إلى موت أمه.

كان الحاج أمين قصير القامة .. نحيف الجسد .. بارز القسمات .. له عينان دقيقتان .. ولحية بيضاء مستديرة .. طيب النبرة .. تجاوز الخمسين قليلاً.

ويقترح الحاج أمين أن يتناولا فطورهما فى أحد المطاعم الشعبية القريبة. ثم يضيف اقتراحاً آخر أثناء تناولهما للطعام .. قائلاً:

ما رأيك بأن تساعدنى يا شريف؟

ولم يستطع شريف أن يجيبه بصوت مسموع حيث كان منهمكاً فى التهام الطعام بشراهة كبيرة .. واكتفى بإيماءة الإيجاب برأسه. وبنظرة الرضى فى عينه.

وكان ذلك اللقاء هو بداية رحلة طويلة مع عالم جديد وغريب ..

حيث انتقل شريف إلى منزل بائع الحليب فى منطقة إمبابة .. وهناك أقام مع زوجته وابنه الذى حدثه عنه.

كان عليه أن يرافقه كل يوم مع خيوط الفجر ليجمع الحليب فى أوانيه من ثلاث مزارع متجاورة بنفس المنطقة .. ثم يجلس أمامه على الدراجة تارة أو يهرول بجانبه تارة أخرى حتى يصلا إلى مكان توزيعهما المعتاد فى حى الزمالك .. وهناك ينتظره شريف بجانب الدراجة بينما ينتقل الآخر من منزل إلى غيره .. وتنتهى عملية التوزيع ليعودا بعدها إلى المنزل ثم يتولى شريف تنظيف الأوانى استعداداً لرحلة الغد، وذلك فى حالة ما لم يوكل إليه تصريف الفائض.

سبعة أشهر كاملة .. وهو غريب عن دياره .. تنحره الوحدة وتطحنه الحسرة .. لا يعرف ما هو مصيره .. وماذا تخبئ له الليالى .. ولكم داهمه الأسى وهو يرى أقرانه وهم فى طريقهم إلى مدارسهم .. كان يتذكر زملاءه .. ويتذكر نفسه فيما مضى .. وكيف داعبته الآمال كثيرة فى أن يصبح ذات يوم محامياً مشهوراً أو طبيباً معروفاً .. سمع كثيراً بأن الحياة لا تدوم على حال واحد، ولكنه لم يتصور قط بأنه المقصود بتلك المعلومة.

رأى فى الحاج أمين ما كان يرجوه فى صورة أبيه .. رأى الحنان والحب والرعاية لأسرته .. تلمس فى حبات العرق إصرار ذلك الرجل على تحدى سنوات عمره فى سبيل الحياة الشريفة الكريمة ..

حاول أن يتجنب المقارنة .. ولكنه لم يفلح .. فكانت صورة أبيه تلازمه مع كل تصرف يقوم به الحاج أمين .. فيراه منكفئاً على وجهه مخموراً فى الوقت الذى يتمم فيه الآخر ركعات الفجر.. يراه متجهماً ملولاً فى مسئولياته معهم .. مقابل نظرة الطيبة والعطف التى يوليها بائع الحليب لأسرته الصغيرة حتى مع عناد ولده وطيشه.

كانت تلك الصورة تؤلمه بالرغم من أنه لا يعلم شيئاً عن باقى الأمور التى تخص والده صابر الجندى .. لا عن صندوق السعادة .. ولا عم فهمى .. ولا عن طبيعة شخصيته أمام المرأة الأخرى التى فضلها على أمه.

ولو كان يعلم .. لاختلف الأمر كثيراً.

وكأن القدر قد اتخذ قراره بأن يواجه شريف للمرة الثانية نتيجة تصرفه حيث كان عليه أن يتحمل مسئولية تلك الأسرة التى احتضنته وهو شريد بلا مأوى .. والتى استأمنته وهو طريد الافتراء .. كان عليه الاعتراف بالجميل دون أن يطالبه أحد به.

فلقد هاجم المرض كيان الرجل المسن، ولم يعد قادراً على مواصلة رحلته اليومية .. ولزم الفراش خائر القوى .. قليل الحيلة.

وتقدم شريف منه ليبدى رغبته ويؤكد استطاعته بأن يقوم هو بتلك المهمة برفقة ولده إلى أن يبرأ من مرضه.



ويوافق الحاج أمين بالرغم من كل شىء .. بالرغم من تشككه فى قدرة شريف وإشفاقاً عليه .. ومن تذمر ولده لهذا الاقتراح .. أو خوفاً من عدم استجابة العملاء لهما.

ولكنه الاحتياج.

كان ابن الحاج أمين فى الثامنة عشرة من عمره تقريباً .. عنيد الطبع .. شرس الميول .. نحيفاً كأبيه إلا أنه يفوقه طولاً .. لازمه الفشل فى دراسته وفى كثير من الأعمال التى توسط له أبوه فيها .. كثير الحركة بالرغم من خمول عقله وإذا تحدث رقصت مع كلماته كل تقاسيم وجهه بما فيه من حاجبين وعينين غبيتين.

وهو يحقد على شريف كثيراً.

فلقد اعتبره مسئولاً عن سحب ثقة أبيه منه .. وبأنه ينال من رعاية والده أكثر مما يجب وهو الغريب عنهم.

ورغم ذلك كان شريف يسعى بكل الطرق لاستمالته أو على الأقل تجنب محاولاته الاستفزازية.

إلى أن فاجأه ذات صباح وهما فى طريقهما لتوزيع الحليب قائلاً:

- أنصت إلى جيداً يا شريف .. فاليوم قد حان موعد الضربة الكبرى.

رفع شريف نظره إليه فى دهشة وهو يسير بجانبه.

- أى ضربة .. فأنا لا أفهمك.

ضحك الآخر وهو يلكزه على كتفيه وقد رفع حاجبيه يتفحصه بنظرة متشككة ثم أجاب:

- تعجبنى .. فالحذر واجب أيضاً .. على كل حال هذا يجعلنى أطمئن إليك.

وقبل أن يتساءل شريف مرة أخرى لاحقه قائلاً.

- لقد ظللت الأيام الثلاثة الماضية أراقب شقة "١٢" التى تعيش فيها المرأة العجوز بمفردها .. و..

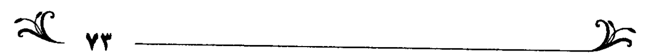
قاطعه شريف منزعجاً.

- ولماذا ..؟

بينما لم يهتم الآخر واستطرد:

- ستصعد معى اليوم وعليك أن تختبئ بعيداً عن نظرها .. وعندما تتوارى هى إلى الداخل .. سأشير إليك لكى تتسلل إلى داخل الشقة وتختبئ فى الحجرة المجاورة إلى أن يحل الظلام وتتأكد من نومها .. فتفتح أنت لى الباب وتنصرف .. ثم أتولى أنا الباقى.

كان شريف مذهولاً وهو يسمع تفاصيل الخطة التى دبرها ذلك



الأبله ومتعجباً من أن يكون ذلك الشرير هو ابن الرجل الطيب الذى يخاف ربه.

بادره الثانى مستفسراً:

- هه .. ماذا قلت؟

- فى أى شىء؟

وهنا بدأت أسارير الغضب تستقر على وجهه وهو يكشر عن أنيابه الصفراء ثم قال:

- اسمع يا شريف .. لا تحاول أن تدعى الشرف فأنا أعلم قصتك جيداً .. والشريف لا يطارده الآخرون أو يسعى لسرقة السيارات.

قاطعه شريف متحمساً:

- أبوك يعرف الحقيقة .. وأنا لم ..

ولكن الآخر لاحقه بإصرار:

- أبى رجل طيب من السهل استمالته .. أما أنا فلا .. وألف لا.

ثم جذبه من سترته فى تحد وأردف قائلاً:

- عليك أن تنفذ ما أقوله وإلا سأسلمك للشرطة .. فلابد أنك هارب من جريمة ما .. ثم أين أهلك .. وأين كنت تعيش من قبل .. ستفعل أم لا .. هيا أخبرنى.

ولم يجبه شريف.

بل سار بجانبه فى صمته الحائر .. لا يعرف بماذا يجيب .. ولكنه يعلم تماماً بماذا ستكون النتيجة إذا أجاب.

بينما اعتبر ابن الحاج أمين ذلك الصمت موافقة ضمنية لشريف على الخطة المدبرة .. وراح يعدد له المزايا التى ستتبع ذلك .. أخبره عن الثراء المنتظر .. وعن فشل الشرطة فى معرفة الحقيقة لأنه أحكم تخطيطها .. وبأنه سيستطيع العيش فى حياة كريمة .. و .. فى ثراء فاحش يفوق كل تصوراته .. سيركب السيارة .. ويرتدى بدلة أنيقة .. ستلاحقه الحسناوات ويستأجر شقة فى الزمالك.

ثم استوقفه أمام المنزل .. قائلاً:

- سأصعد أولاً .. ثم اتبعنى بعد دقيقتين بالضبط.

وقف شريف بجانب الدراجة ساكناً وقد احتواه إحساس بالرهبة والهلع فها هو محامى المستقبل سيتحول بعد لحظات قليلة إلى طريد للعدالة .. وهاهو طبيب الغد سينتمى إلى نقابة اللصوص والمجرمين.

وعليه أن يتخذ قراره.

وقبل أن يتيح لعقله فرصة للتفكير .. شعر برغبة عنيفة إلى أن يستسلم للعدو من جديد .. و .. انطلق بكل سرعته يقطع طريقاً بعد طريق

.. يخترق الشوارع الجانبية بلا هدف .. ومرة ثانية وجد نفسه محاصراً بمخالب الخوف وراح يتلفت حوله وخلفه كأنه يحاول الهرب من عيون كثيرة تلاحقه .. عيون تعرف عنه الكثير .. عرفته طريداً لإحساس الذنب .. وإن كان ذنباً بلا إثم .. وطريداً لسايس الجراج .. ثم أخيراً بات طريداً لذلك الشرير الذى لم يشفق على أبيه وهو على فراش المرض.

ومرة أخرى يجد نفسه أمام النهر الصامت العظيم .. اتجه نحوه بلهفة كبيرة وتجاوز السور الصخرى .. متسللاً فى انحدار إلى أن انقطعت صلته بالطريق العام .. والسيارات .. أصبح بمفرده معه يواجهه بإجلال كبير .. وهنا فقط أحس بالأمان، وأسند ظهره على بعض تكومات الأعشاب المتشابكة .. وأخذ يراقبه وهو يزحف فى كبرياء وثقة .. بهدوء مثير.

إحساس عجيب جعله يشعر بالحاجة نحوه .. كأنه يلجئ إليه ويستغيث به.

كان فى حاجة إلى أحد يؤازره .. ولكن ليس أى أحد .. يريده جباراً كالنيل .. له شموخ القوى وحكمة العالم .. قادراً على إنقاذه والاطمئنان إليه .. قادراً على أن يغفر ويعفو .. و ..

.. ترى سيغفر أبى ..

قالها فى أعماقه وهو ينتفض واقفاً .. كأنه ما جاء للنهر إلا ساعياً لأبيه .. وما اقترب منه إلا طلباً للعفو والرضى.

صعد إلى الطريق العام .. تحسس جيوبه وهو يعلم أنه لا يملك شيئاً، ولكنها محاولة للتعقل فى أى تصرف قد يقدم عليه.

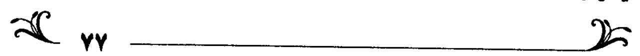
اندس وسط مجموعة تنتظر الأتوبيس .. تساءل واجفاً عن مواصلة تنقله إلى شبرا .. كان يتلكأ فى الصعود إلى الأتوبيس حتى يستقر هو فى النهاية على السلم، تفادياً لإحراجه وهو لا يملك نقوداً اضطر أكثر من مرة لأن يستبدل الأتوبيس بغيره عندما تضيق به الحيل .. إلى أن وصل.

وفى شبرا أحس بالهواء فى صدره غير الذى كان يتنفسه طوال الأشهر الماضية .. وبأن السماء غير السماء .. والوجوه يعلوها الأمان .. إنه الغريب العائد إلى موطنه .. تمتلكه رغبة فى أن يتحدث مع كل الناس .. أن يلثم الأرض بشفتيه العطشى .. تمنى لو أن فى استطاعته أن يضحك بصوت مسموع أو أن يقوم بحركات بهلوانية على قارعة الطريق .. تمنى لو استطاع أن يضم منطقة شبرا كلها إلى صدره ويصيح فى ساكنيها قائلاً:

.. هأنذا قد عدت إليكم من جديد.

تمنى الكثير وهو فى طريقه إلى منزله بخطى أقرب إلى العدو.

تردد برهة قبل أن يطرق باب الشقة والاضطراب يشمل كيانه.. ولكنه تراجع بخطوة متخاذلة عندما ظهرت إليه ثريا .. فهو لا يعرفها .. فسكن أمامها دون أن يتفوه بكلمة .. فبادرته هى قائله:



- نعم .. ماذا تريد

- أنا شريف

تساءلت غير مكترثة:

- شريف من؟

- أنا شريف ابن والدى

استقرت ابتسامة فوق شفتيها وهى تتساءل:

- والدك من؟

- أنا شريف .. ابن والدى صابر الجندى.

وهنا انفلتت منها همسة مذعورة:

- أنت .. أنت شريف ابن صابر.

ثم راحت تتفحصه بملابسه الممزقة .. أحس بنظراتها تكشف عن كل الأحداث التى مرت به .. فتراجع بخطوة أخرى وهو يسقط نظرته إلى الأرض .. بينما تلفتت ثريا حولها كأنها تبحث عن منقذ ينقذها أو عن إنسان آخر يرشدها إلى التصرف السليم .. وفى النهاية قالت بكلمات متلعثمة.

- ادخل .. أدخل يا شريف.

ودخل شريف بخطوات متهالكة وكأنه فى طريقه إلى المشنقة

.. بينما استقر الشحوب على وجهها وهى تعاود الكرة فى نظرتها إليه ثم توارت داخل إحدى الحجرات .. كانت حجرته السابقة.. ثم عادت برفقة شقيقها سالم الذى تقدم منه مرحباً فى تصنع:

- أهلاً .. أهلاً يا شريف .. أنا سالم شقيق تانتك ثريا .. و..

وتدخلت ثريا بعدما التقطت أنفاسها:

- سمارة فى النادى .. ستفرح كثيراً عندما تراك .. ثم .. أتعلم أن نظمى قد سافر إلى أمريكا ليكمل تعليمه.

وهنا استأذن سالم بالانصراف وهو يردد:

- سآتيك بوالدك فوراً .. سأذهب وأخبره بقدومك.

اضطربت نبضات شريف وهو يتابع انصرافه ليأتى بوالده.

ومضت الدقائق مثيرة متوترة .. والصمت يفرض وجوده قهراً عليهما، بالرغم من محاولات ثريا لكى تبدو طبيعية.

رفع عينيه إلى صورة أمه التى كانت تتوسط الجدار المقابل له .. ولكنه لم يجدها .. حتى الأثاث لم يره من قبل .. كل شىء داخل الشقة قد تبدل .. لم يشعر بنفس الوقار الذى كان يخيم عليها .. ولا بالهدوء الذى كان يفرضه عليهم والده فى السابق.

حيث كان صدى الموسيقى الغربية يتخبط فى كل الأرجاء .. وتفرقت حوله بعض الصور المفضوحة التى لو صادفت أحدهم فى

السابق بإحدى المجلات لحرقها خوفاً من بطش أبيه.

ولكن الحال بات على ما يبدو غير ما كان.

وكأن الأرض قد انشقت فجأة لتلفظ بأبيه أمامه .. شعر بعدها كما لو كان يقف على أرض ترتجف من زلزال عنيف .. حيث انقض عليه صابر الجندى كالثور الهائج يكيل له اللكمات والصفعات دون وعى .. وقد وصل به الغضب إلى مداه وراح يجذبه بعنف ثم ما يلبث أن يسقطه على الأرض وهو يصيح:

- أين كنت يا ضائع يا حقير .. سأقتلك إذا لم تعترف .. من الذى أغواك لتترك البيت؟

ثم لاحقه بركلة قوية على ظهره .. وأردف:

- أين كنت يا ولد .. وكيف تترك البيت وتهرب .. لن ترى المدرسة بعينك مرة أخرى يا كلب .. و..

وتلحق به ثريا وهى تحاول تهدئته .. أو حاولت أن تبدى ذلك.

- لا داعى يا صابر .. المهم أن يكون هو لم يتورط فى عمل مشين طوال فترة غيابه قد يضر بسمعتك.

فيتحمس صابر الجندى لسمعته .. وينهال على شريف ضرباً.

- هذا البيت ليس ملجأ للمتشردين .. اغرب عن وجهى .. اذهب إلى المكان الذى احتضنك طوال هذه المدة.

ثم أخذ يدفعه بقوة إلى خارج الشقة وهو يردد: أخرج ولا تعد ثانية .. فأنا أخشى على اخوتك منك .. اخرج . اخرج.

وخرج شريف وهو يتحسس الدماء التى تنزف بغزارة من أنفه مختلطة بدموع الحسرة التى كانت تتسابق فوق وجنتيه الملتهبتين إثر الصفعات المتتالية.

خرج شريف وهو لا يعرف إلى أين يذهب .. وإلى أين ستسوقه خطواته .. خرج لتتلقفه نسمة الغروب الباردة لتحرك فى كيانه الصغير كل مواجع الماضى والحاضر .. والخوف من الغد .. هاهو موطنه الذى سعى إليه وهو لا يعرف أنه سيلقى به إلى غياهب الضياع .. وهاهو النهر الجبار الذى تحول فى لحظة غدر إلى وحش منتقم .. هاهو القدر يعاقبه على ذنب لم يقترفه شأنه شأن أمه الراحلة.

خرج شريف وهو يتساءل بعقله الصغير .. وقلبه الوديع .. عن سبب قسوة أبيه المفاجئة وتراه .. كان أباه حقاً.

وكم تمنى فى هذه اللحظة أن يسأله بنفسه .. ولكن الظلام قد حل .. وحلت مع خطواته رحلة أخرى مع اليأس والضياع .. وهو يردد فى أعماقه بإصرار الجريح .

.. أبداً .. لن أعود.



(٤)

كانت لحظة عنيدة .. مكابرة.

تحدت رحلة الزمن فى حياة صابر الجندى واقتحمها فى إصرار يفوق مقاومته للهرب منها.

ولكن كيف يهرب .. وهو لم يعد قادراً على اتخاذ مثل هذا القرار بل وأى قرار آخر .. من أجل هذا تململ على مقعده فى سأم وراح يتنقل بنظره نحو أرجاء حجرة مكتبه .. كأنه بذلك يراوغ نفسه .. ولكنه لم يفلح تلك المرة من الإفلات .. حيث استقرت نظرته على المرآة المرفوعة على الحائط أمامه .. تراجع برأسه للوراء منزعجاً كأنه اكتشف لتوه أنه بات شيئاً آخر..

أى شىء .. إلا هو.

فالنظرة المقهورة التى استقرت فى مقلته لم يكن لها مكان فى عينى صابر الجندى .. وعلامات الأسى والكآبة لم تعرف الطريق إلى وجهه ذات يوم .. وتلك الصرخات الملتاعة فى صدره كيف جرؤت على اقتحام أعماقه.

ولكنها الحقيقة..

الحقيقة التى قفزت إلى رأسه .. سنوات طويلة مرت عليه استطاعت خلالها أن تسلب منه ما كان غافلاً عنه.

ولهذا لم يستطع هذه المرة أن يقاوم تلك اللحظة الدخيلة على حياته المستسلمة .. فاستكان إليها يسترجع معها وهو منكسر ذكريات بعيدة، أخذته إلى حوار قديم لم تستطع السنون أن تمحوه من ذاكرته .. كلمات قليلة جمعت بينه وبين ثريا تبدلت بعدها حياته إلى حيث يتأمل الآن أمام المرآة.

فالأخطاء عادة ما تتزين فى ثوب الصواب، وتلقى بنفسها فى جوف النسيان لعلها تعيد الكرة من جديد .. ولا تكشف عن حقيقتها إلا مع النتائج.

وهاهو يسترجع مع لحظته العنيدة، نتائج تصرفه مع ثريا يوم قفزت من جانبه وهو يتأهب لنزواته الشرهة .. ووقفت تتأمله قليلاً ثم قالت:

- أرجوك يا صابر.. اتركنى اليوم .. فأنا قلقة .. و..

وبعد كلمات اللهفة .. وتعبيرات القلق والخوف على صحتها .. وبعد القفزة التى كادت تسقطه على وجهه وهو فى طريقه إليها .. واضطراب جفنيه وتهدج نبرات صوته .. بعد كل هذا تساءل صابر الجندى:

- ماذا بك يا حبيبتى .. ما الذى يقلقك يا عمرى .. أخبرينى بكل شىء ولا تخفى شيئاً .. فأنت تعلمين مقدارك عندى.

وتدللت كما لم تتدلل من قبل .. وأجابت:

- لا شيء أكثر من أننى أشعر بالضياع .. أشعر وكأننى تواجدت فى منزلك لكى أصبح خادمة فقط .. لا شيء يجعلنى أتوقع الاستقرار يوماً .. إنى حزينة .. كسيرة القلب .. عديمة الحيلة .. لا أعرف ما هو مصيرى فيما بعد.

- أى مصير يا حبيبتى.

- مصيرى أنا يا صابر.

ثم اقتربت منه لتلهبه بأنفاسها وهى تستطرد:

- لقد وعدتنى بأمور كثيرة .. ولم تنفذ وعدك لى.

و .. نفذ صابر الجندى يومها وعده لها .. سجل المكتب باسمها وبدل عقد الشقة لها .. ومنحها حق التصرف فى كل شيء .. فى أمواله وأحواله .. فى قراراته إلى أن سلبتها منه .. فى نفسه حتى أضاعتها .. فى كل شيء .. حتى أنه لم يستطع فى ذلك الحين أن يواجه مأساة ابنته سميرة مع سالم .. كانت الصدمة أكبر من شجاعته .. وأقوى من تحمل رجولته الواهنة الضعيفة.

يوم فوجئ بتلك العلاقة حيث بدت معالم الجريمة الآثمة تظهر على بطنها .. فتوسلت وتذللت .. ولكن سالم أصر على عدم اتخاذ أى خطوة تمحو خطيئته .. بل تنكر لها .. وهددها بالفضيحة المنتظرة .. ثم جاءت اللحظة التى حاول فيها الخلاص منها وقدمها إلى أحد أصدقائه المتسكعين على أبواب الرذيلة، ووجدت نفسها مضطرة إلى

أن تحمل سنوات عمرها العشرين وترحل بعد أن تركت رسالة إلى أبيها .. ذكرت فيها الحقيقة كاملة .. كيف كانت ثريا تلعب دوراً خطيراً فى تلك العلاقة .. وكيف استطاع سالم استغلال سذاجتها وقلة خبرتها مع أمثاله .. وذكرت أيضاً كيف ساهم هو بنفسه فى ذلك.

وبالرغم من كل هذا ظل كل شىء كما هو .. ثريا على حالها مع شغفها الكبير للاستحواذ على كل شىء .. وأى شىء .. وسالم لا يزال يمارس عمله فى البوتيك وانتقل إلى منزل آخر فقط .. ولكنه لا يزال أيضاً يتزاور مع شقيقته.

كل شىء ظل كما هو .. غير أن سميرة قد رحلت.

ومع رحيل سميرة بدت الأمور أكثر وضوحاً، وخاصة ثريا التى أفصحت قليلاً عن حقيقتها أمامه عندما حاول أن يثأر لكرامته من سالم.

- كيف يجرؤ أخوك على فعل تلك الجريمة .. لقد أمنته على بيتى وعلى ابنتى .. وشرفى .. كيف سمحت له بذلك، لابد أنك تعلمين .. لابد أن ..

وتذكر صابر أيضاً كيف أجابته مقاطعة فى ذلك اليوم:

- كفى .. كفى .. إنك تتحدث كما لو كانت ابنتك طفلة صغيرة .. ابنتك يا صابر بك تعرف الكثير .. ثم ما أدراك أنها معتدى عليها .. فهى التى طاردته كثيراً أمامى .. كانت تلاحقه فى كل مكان .. ما ذنب أخى إذن .. و ..

وتهور صابر الجندى يومها .. وكان تهوره نذيراً بوضوح الرؤية أمامه.

- اخرسى .. أنا ابنتى أشرف منك ومن أخيك القذر .. وأنا أمنعك من الاتصال به بعد اليوم .. وعليه أن يرحل من بيتى قبل أن أهشم رأسه إذا صادفته.

لم تستطع السنوات الطويلة أن تنسيه صدى ضحكتها المجلجلة فى ذلك اليوم .. وكيف تحولت أنوثتها المتأججة فجأة إلى فحيح أفعى زاحفة إلى فريستها فى رغبة عنيفة لالتهامها .. وتبدلت نظرتها الناعسة إلى شرر ملتهب .. ثم أجابت.

- بيتك .. أى بيت هذا الذى تتحدث عنه .. ثم إنك الآن تهيننى .. وتهين أخى .. ولن أسمح بتكرار مثل هذه الكلمات مرة ثانية .. وإلا .. وإلا فسيكون لى شأن آخر معك.

وأدرك صابر الجندى فيما بعد ما هو الشأن الآخر الذى تقصده ثريا معه .. حيث أظهرت له الوجه الثانى الذى كان يجهله عنها .. تحو لت ابتسامتها الرائعة إلى تكشيرة دائمة .. وانقطعت بينهما أحاديث الهمس واللمس .. وانقضت ليالى السهر والسمر .. وجد نفسه يعانى وحدة العقل .. والجسد.

تأجلت مصروفات نظمى التى كانت ترسل له بانتظام لمواصلة تعليمه فى أمريكا .. انقلبت حياة الصخب والمرح فى المنزل

إلى سكون موحش وصمت كئيب .. كل هذا كان كافياً لكى يذعن مرة أخرى .. وأن يسحب ثورته ويبتلعها فى مذلة .. ويعود كل شىء كما كان .. إلا أن سميرة قد رحلت.

انتبه صابر الجندى على أن الوقت قد حان ليعود إلى البيت .. فغير مسموح أن يتجاوز موعد إغلاق المكتب بربع ساعة .. وهى مدة كافية للعودة إلى البيت.

تحرك متثاقلاً فى خطوته .. مضطرباً فى أعماقه وهو يجمع بعض الأوراق الخاصة للعرض حسب المعتاد كل يوم معها.

كان الطريق غريباً عليه .. تماماً كغربته مع نفسه .. وخاصة أنه قد غير مسار سيره المعتاد منذ حادثة سميرة، بعد أن بدأت الشائعات تلاحقه من كل معارفه .. حتى الذين كانوا يتملقونه فى السابق بقصد استحلاب نقوده أو خشية بطشه .. أصبحوا الآن شيئاً آخر.. نيقولا البقال دأب فى الذهاب والإياب على ملاحقته بكلمات فيها كثير من المعانى الخفية .. وخاصة إذا كان لا يوجهها إليه مباشرة.

.. يا خسارتك يا صندوق السعادة .

.. سلامتك يا جبل.

.. الغائب حجته معه.

كان يشعر بالكلمات وكأنها أسنة رماح ترشق فى ظهره كلما تصادف مروره من أمام نيقولا .. وما يكاد يلتقط أنفاسه بعد أن يتجاوز المحل حتى تتلقفه صيحات السخرية من الأسطى (فتحى الجزمى) سابقاً الذى استبدل مهنته بفتح بوتيك لأدوات الزينة فقط.

.. الدنيا غداره مهما كانت الشطارة.

.. آمنت بك يا زمن.

من أجل هذا قرر صابر الجندى أن يستبدل خط سيره بطريق آخر.. بعيداً عن الطعنات المتوالية .. وذلك لا يمنع من أنه قد استطاع أن ينشىء علاقات جديدة من خلال عم فهمى قبل وفاته .. فآثر الاحتفاظ بتلك العلاقات الجديدة أمثال تاجر الحبوب والبخور الذى كان يتعامل معه عم فهمى .. وكذلك صاحب مقهى الترعة البولاقية الذى تعود أن يجلس عنده فى الأوقات التى تسمح بها ظروفه، وكذلك حسب ظروف زوجته ثريا، فقد تكون عند الخياطة أو فى زيارة لإحدى قريباتها .. أو لتطمئن على شقتها القديمة.

وصل إلى المنزل .. واكتشف عدم و جودها مثلما يحدث كثيراً .. دخل وما كاد يستقر على مقعده المفضل فى وحدته حتى انتفض على صوت يناديه من الطريق العام.

.. ياصابر أفندى .. يا صابر بك.

أطل برأسه يدقق النظر بعينيه المرهقتين الذابلتين فى محاولة لتبين صاحب الصوت .. ثم جاءه الصوت من وسط الضجيج.

- برقية لأجلك .. برقية من أمريكا.

ابتسم صابر الجندى .. وهو أقصى ما يمكن أن تقوم به شفتاه فى الوقت الحاضر .. وأسرع إليه .. ثم أخذ يقرأ البرقية بأنفاس لاهثة.

.. حصلت على ما جيستير الهندسة التطبيقية .. وأصلكم الشهر القادم .. أرجو إرسال قيمة تذكرة العودة.

صعد صابر الجندى إلى الشقة مرة أخرى .. وعاود قراءة البرقية مرات كأنه يسعى للتعلق بأى أمل قد ينقذه من أحاسيس المذلة والقهر التى لازمته منذ سنوات طويلة.

ترامى إلى مسامعه صوت وقع أقدام خلفه .. التفت ليجد ثريا أمامه فلاحقته قائلة:

- لعلك لم تنتظر طويلاً.

أومأ برأسه مستسلماً.

- لا .. أبدا .. وعندى لك خبر سار سوف يسعدك.

راقبته باهتمام .. بينما أردف هو قائلاً:

- نظمى يا ثريا .. ابنى سيعود الشهر القادم .. و..

ثم رمقها بنظرة متوسلة .. و.. متوجسة .. قبل أن يستطرد.

- ولكن .. هو يطلب ثمن التذكرة .. تذكرة العودة.

وكأنها لم تسمع شيئاً . أو أن الأمر حقاً لا يعنيها . قاطعته قائلة بنبرة واثقة:

- اسمع يا صابر أنا زهقت من الوحدة .. وقررت العودة إلى البوتيك .. ولكن .. ولكن سالم يجب أن يلتحق بأى عمل .. ولقد رأيت أنه يعاونك فى المكتب أفضل.

وفى تبسط كبير أعاد صابر كلماته قائلاً:

- نظمى سيعود الشهر القادم يا ثريا .. و..

ولكنها قاطعته بحزم:

- ماذا قلت يا صابر بخصوص سالم.

ولم يكن صابر فى حاجة لأن يدرك حقيقة ما تعنيه ثريا أكثر من ذلك وبأن عليه أن يدفع المقابل .. والمقابل هو الموافقة على ذلك الاقتراح الخبيث.

تساءل مرة أخرى كأنه يتأكد مما يسمعه.

- ماذا قلت يا حبيبتى؟

بدت النظرة المتحفزة أكثر وضوحاً فى عينيها.

- قلت أن سالم سوف يستلم العمل معك ابتداء من غد.

انفلتت من بين شفتيه همسة:

- و.. نظمى.

لاحقته فى ملل:

- بعد غد سأذهب بنفسى لتحويل المبلغ إليه.

ابتهج صابر الجندى .. أو حاول أن يكون كذلك.

- أخبرى سالم بأننى فى انتظاره غداً .. و..

وقبل أن يسترسل فى حديثه قاطعته ثريا مرة أخرى بضحكة مجلجلة ذكرته بأيام الهوى .. ثم قالت:

- أتريد أن يأتى إليك سالم بنفسه بعد إهانتك له.

استدارت مولية له ظهرها واستطردت:

- كرامته لا تسمح بذلك .. عليك أن تذهب بنفسك.

لم يجد صابر الجندى ما يقوله لثريا أمام ذلك الموقف .. وهو يريد أن يصرخ فى وجهها .. أن يقهر كبرياءه الذليلة، يريد العودة إلى نفسه .. إلى صابر الجندى القديم الذى تصور يوماً بأنه أقوى من الظروف .. وأقوى من كل التحديات .. أقوى من ليالى الضياع وغزو

الزمن .. يريد أن يحطمها .. ولكنه لم يستطع شيئاً فى النهاية سوى أن يومئ برأسه هامساً.

- سالم كأخى الصغير.. وسوف أرضيه غداً.

تركته ثريا وذهبت إلى حجرتها .. بينما اتجه هو إلى الشرفة المطلة على شارع شبرا كأنه يحاول أن يغوص وسط ضجيجها بعيداً عن صدى أعماقه.

ما أقسى العجز فى حياة الإنسان .. الإنسان الذى يجد نفسه مقابلاً لأى شىء .. حتى ولو كان المقابل هو ذاته .. وكرامته .. و .. رجولته.

وما أقسى أن تخضع رغبات أنفسنا إلى ما يمليه الواقع علينا .. حتى ولو كان الواقع ظالما.

وفى اليوم التالى كان سالم قد استلم عمله فى مكتب العقارات واستلم أيضاً زمام الأمور فى كل شىء.

وكم كان قاسياً على نفس صابر الجندى المقهورة أن يواجه كل يوم أحاسيس الضعف والمذلة فى صورة سالم الذى بدا كأخته أكثر وضوحاً فى تصرفاته اللامبالية، كأنه لم يتسبب يوماً فى تلك الطعنة الغادرة، أو كأن ما حدث هو امتداد طبيعى لظروفهم جميعاً .. كان حديثه معه مستفزاً ونظراته إليه تحرك كوامن الحقد الدفين.

فكل منهما يدرك حقيقة شعور الآخر نحوه .. وكل منهما تراوده نفسه لتصورات كثيرة يرغب فى أن يتخذها ضد الآخر.

صابر الجندى يراه شيطاناً آثماً .. يراه خنجراً خسيساً قد رشق فى ظهره عن غير توقع .. يراه بؤرة عنيفة وشرياناً فاسداً لا ينقل سوى دماء سوداء إلى القلوب البريئة .. يراه سرطاناً بشعاً قد تسلل إلى جسد ابنته الصغيرة ومزق كيان الأسرة بأكملها .. يراه قاتلاً للبراءة، والحياة النظيفة، والحب .. ولهذا يجب أن يقتل.

وسالم بات يستشعره حملاً ثقيلاً يجب التخلص منه .. فلقد نضبت موارده المادية ولم تعد منه أدنى فائدة .. فلماذا البقاء عليه.

من أجل هذا استطاع سالم بلا جهد كبير أن يستحوذ على مقاليد أمور العمل .. ظل يكثر من وجوده فى المكتب حتى يتمكن من ملاحقة العملاء وأن يبدو فى الصورة أمامهم دائماً .. وكثيراً ما تعمد أن يلغى محاولات قد بدأها الآخر حتى يتشكك الآخرون فى مقدرته وينصرفوا عنه .. وصابر لم يكن مدركاً لذلك الزحف الثعبانى على حياته .. كان مستسلماً فى ملل ومتواكلاً فى غباء.

هو يريد فقط أن تسير الأمور بالقدر الذى لا يسمح بالمواجهة، أو بكشف الحقائق دون خوف .. يريد أن يصل للحظة التى يشعر من خلالها أنه بات قوياً كسابق عهده .. لذلك حاول، أن يتحمل محاولات سالم الاستفزازية ومناوراته الخبيثة التى دأب عليها كل يوم معه.

إلى أن فوجئ صابر الجندى وهو يدخل مكتبه بأن سالم قد احتل مقعده واعتبره مجلسه الدائم فى نفس الحجرة .. فتردد برهة قبل أن يتخذ لنفسه مكاناً أمام المكتب، وجلس وهو يرمقه بنظرة مترقبة، بينما أمعن سالم فى تجاهله متحججاً بحديثه التليفونى .. وبانتهاء المكالمة مضت لحظات متوترة ملولاً قبل أن يبادره سالم قائلاً:

- أهلاً صابر بك.

وانتظر صابر لحظات قليلة وهو يراقب شفتيه كأنه يأمل فى أن يعتذر الآخر عن احتلاله للمكتب دون إذن .. ولكنه لم يفعل فزاغ بنظرته بعيداً عنه كأنه لا يرغب فى رؤية وجهه الكريه .. ثم قال:

- يبدو أن مكتبك مشغول يا أستاذ سالم ..

وبفتور مثير أجابه:

- أبداً ..

- إذن .. هل كنت تنتظرنى لأجل شىء ما.

ابتسم سالم ابتسامة باردة وهو يهز رأسه.

- لا أبداً .. فأنا لا أحتاجك الآن .. ولكن ربما فيما بعد.

اندفعت الدماء إلى رأس صابر فجأة وهو يدقق النظر إليه كأنه لا يصدق ما يراه .. وما يسمعه .. وبصعوبة كبيرة حاول فيها أن يتمالك .. لاحقه متسائلاً:

- تحتاجنى .. ماذا تقصد يا أستاذ سالم .. هل نسيت من أنا .. أم أنك مازلت تهوى المداعبات التى ليست فى وقتها.

رفع الآخر عينيه إليه مختلساً نظرة خاطفة ثم أدارها بعيداً وهو يقلب بعض الأوراق بين أصابعه .. ثم قال:

- أعتقد أن ليس بيننا مداعبات فى السابق .. وما دام الأمر كذلك فيجب أن تعلم يا صابر بك أننى موجود هنا لمراجعة الدفاتر، وكذلك كل ما يخص حسابات المكتب .. و..

نهض من وراء المكتب واقترب منه ثم استطرد:

- وأعتقد أنك لا تمانع فى ذلك .. وخاصة أن أختى ثريا تريد معرفة كل شىء عن حساباتها.

- حساباتها.

- أجل حساباتها .. هل هناك معنى آخر لهذه الكلمة.

انتفض صابر الجندى بشىء من العصبية ثم بادره.

- يبدو أنك فهمت خطأ .. فأنا قبلت وجودك فى المكتب استرضاء لثريا .. وكذلك لتجد ما يشغلك به.

وهنا انفجر سالم ضاحكاً فى قهقهة خشنة .. وصمت فجأة وهو يعود إلى مكانه .. ثم قال:



- اسمع يا صابر بك .. لقد آن الآوان لكى نحدد موقفنا .. وأن يعرف كل منا قدر حجمه فى المكتب .. فهذه الأموال أموال أختى وأنا أحق الناس بإدارتها .. كما أننى تحملت كثيراً محاولاتك الاستفزازية معى. وأنا أعرف السبب .. مهما تكن الأسباب فلن أسمح بأى تهاون فى مستحقات أختى ثريا .. ولهذا سأضطر إلى أن أجعلها تحدد موقفك ابتداء من اليوم.

وبهدوء غير متوقع أجابه صابر الجندى.

- اخرج من هنا.

- ماذا قلت .. أتطردنى يا صابر من مكتب أختى.

وباتزان ينبئ بالشر .. استطرد صابر قائلاً:

- أمامك دقيقة واحدة .. وإلا فاستدعى لك الموظفين ليلقوا بك على الطريق .. وإياك أن أرى وجهك بعد اليوم .. و ..

وقبل أن يسترسل قاطعه الآخر وهو يتخذ طريقه للانصراف:

- سوف تندم يا صابر .. يا صابر بك.

ثم أغلق الباب وراءه بعنف تاركاً صابر الجندى يتابعه بنظرة حائرة وكل نبضة فى عروقه تنتفض غيظاً مكبوتاً.

وكان ذلك الموقف كفيلا بأن يدفعه إلى اتخاذ قرار .. حتى لو كان قراره ضد تيار واقعه وضد ظروفه الحالية .. فقرر أن يذهب إلى

منزله ليعلن لثريا بأنه قد سحب موافقته على عمل سالم معه وبأن يطالبها بقطع علاقاتها به فوراً .. وأن يحذرها من الاتصال به مهما كانت الظروف .. سيخبرها بأنه لم يعد قادراً لتحمل مزيد من الإهانات .. سيذكرها بحبه وبالليالى الجميلة التى عاشاها معها سنوات طويلة .. سيشرح لها كل الظروف التى دفعته إلى ذلك.

كان منفعلاً وهو يغلق الباب دونه داخل الشقة .. دخل إلى غرفته فلم يجدها .. انتقل إلى الثانية ثم الثالثة ولكنه أيضاً لم يجدها .. وقف برهة يتأمل الفراغ ثم تحرك منصرفاً وهو أكثر انفعالاً بعد ما راوده خاطر بأن سالم قد سبقه وشكاه إليها وبأنها قد اقتنعت بكلامه فقررت العودة إلى شقتها القديمة غاضبة .. كانت خطواته على الطريق إلى شقتها القديمة ثائرة .. متوترة .. فى صدره أنات حبيسة لذلك الموقف الذى اتخذته ثريا.

أهكذا يا ثريا ...

تنصتين لكلام ذلك المتشرد وتقتنعين به .. أهكذا بعد كل الحب والتضحيات التى وهبتها لك .. أما كان فى إمكانك انتظارى ولو قليلاً .. ألا تنتظرين حتى تعلمى الحقيقة.

توقف لحظة يلملم فيها شتات فكره .. ويستعيد هدوءه.

تراها ماذا ستفعل عندما أخبرها بان أخاها حاول إهانتى!!

صعد درجات السلم المؤدى إلى شقتها بتؤدة كأنه يهيئ نفسه لحديث عتاب طويل بينهما .. وما كاد يضغط على الجرس حتى تسمر أصبعه فى الهواء عندما ترامى إلى مسمعه صدى ضحكتها المائعة .. ذكرته بلياليه الرائعة معها. إحساس ما جعله يتردد فى الضغط على الجرس أكثر من مرة .. ولكنه لم يجد مفراً من ذلك وخاصة أنها قد أعادت الكرة فى ضحكة أكثر ميوعة.

مضت دقيقة سكون شعر بها وكأنها لحظة من لحظات الموت الكئيبة .. كانت هناك وراء الباب تحركات غير عادية .. كل شىء توقف فجأة أثر الجرس الموسيقى .. كتمت أنفاسها .. والضحكات ذابت فى طيات الصمت .. ثم اقترب شبحها من وراء الزجاج .. وبصوت متحشرج تساءت:

- من .. من بالباب.

- أنا .. صابر ياثريا افتحى.

كان خيالها يتراقص أمام عينيه كأنها فى رقصة أفعاوية مما دفعه إلى أن يطالبها من جديد بنبرة أكثر حزماً.

- افتحى يا ثريا .. أنا صابر.

وفتحت الباب وكل الخوف والاضطراب يملأ عينيها، وقد شحب وجهها، وبدت كأنها تعانى من مرض لا برء منه .. دفعها

برفق ودخل إلى الردهة .. ولكنه ما كاد يخطو خطوة أخرى إلى الداخل حتى تسمر فى مكانه عندما وقع بصره على المائدة وقد وضعت عليها أصناف من المشهيات بالإضافة إلى الزيتون والجبن والبسطرمة، وقد انكفأ أحد الكؤوس على الأرض والآخر استقر على طرف المائدة .. تناوله بيد مرتعشة واقترب به إلى أنفه لتفوح منه رائحة تذكرها جيداً .. فهى قريبة الشبه من البولاناكى الذى حواه صندوق السعادة كثيراً .. التفت إليها مذعوراً ثم أدار رأسه فى كل اتجاه .. اندفع بكل طاقته متجهاً إلى الغرفة المجاورة ولكنه ما كاد يضغط على مقبض بابها وفتحه حتى تلقى لكمة مفاجئة جعلته يتبين صورة وجه ضاربه بصعوبة وقد انطلق هارباً بسرعة بعد ما حطم فى طريقه كل ما كان فوق المائدة التى انقلبت على رأسها على أثر خطواته المرتبكة.

بينما تملك الذهول يا صابر الجندى لثوان قليلة وهو ملقى على الأرض يعانى من قسوة اللكمة، وقد تجمعت فى عينيه كل مشاعر الأسى والجزع .. ثم تحامل على نفسه ونهض بتثاقل كبير وهو يتمتم قائلاً:

- كان يجب أن أعلم .. كان يجب أن أعلم من قبل بأنك ..

قاطعته ثريا بصوت أقرب للهمس:

- صابر .. صابر يا حبيبى لا تظلمنى .. إنه أحد أقربائى .. و ..

- كفى يا عاهرة .. كفى .. لقد آويتك وكنت أظن أنك سوف تعتادين على الهواء النظيف .. ولكنك كالحشرة الدنيئة لا تحومين إلا حول الوحل .. ولسوف أريك أن ...

ولكنها تقاطعه مرة أخرى وقد امتلأت عيناها بالدموع .. وتهدجت نبرتها وهى تتوسل قائلة:

- أرجوك يا صابر أنا بريئة .. لا تظن بى السوء يا حبيبى .. فأنا لك مخلصة وسأظل كذلك إلى الأبد.

اقترب منها والشرر يطل من نظرته:

- اسمعى يا امرأة جيداً .. لقد أخذتك من الطريق .. و .. سأعيدك إليه .. منحتك الثقة والحب .. واليوم أستعيدهما.

تحسس بأصبعه جانب فمه .. تجاوزها بخطوة متهالكة .. ثم التفت إليها قائلاً:

- ثريا .. أنت طالق.

وفى أقل من ثانية .. كأنها ومضه برق فاجأت الأفق ثم تلاشت .. تبدل كل شىء .. اختفت دموع الخوف من بين جفنيها .. وتوارت النظرة المتوسلة المستعطفة .. وهدأت أنفاسها المضطربة.

باتت فى صورة مختلفة تماماً .. بدت كالنمرة الشرسة فى نظرتها .. وتقلصت أسارير التحدى والغضب على وجهها .. وانتصب قوامها فى ثقة كبيرة ثم استوقفته قائلة باتزان وتؤدة.

- إذن فلقد انتهينا يا صابر.. أليس كذلك؟

وبنفس الحماس الذى بدأ به أجابها:

- نعم انتهينا .. ولا تذكرى اسمى على لسانك القذر.. و..

قاطعته بحزم جذب انتباهه ودهشته:

- كفى .. لقد تحملت كلماتك البذيئة أكثر مما يجب .. وعلى كل حال أنا لن أعاملك بالمثل .. ولن أطالبك بشىء .. بل وسأسمح لك بأن تأخذ حقيبة ملابسك وترحل.

كان ينصت إليها كأنه يعايش حلماً مقلقاً .. كالمسحور أو المعتوه الذى يرى أمام عينيه خيالات غير حقيقية.

ولكنها الحقيقة...

وقبل أن تدع له فرصة استعادة فكره .. استطردت قائلة:

- يجب أن تعلم أننى لم أسعد معك لحظة واحدة منذ زواجنا لقد ذقت المر بجانبك طوال تلك الفترة .. و..

ولكنها توقفت عندما ظهر سالم فجأة قادماً من الخارج .. ثم توجه مباشرة إلى صابر الجندى وهو يتفحصه بازدراء .. قائلاً:

- أما تزال هنا يا سيد صابر.

التفت إليه الآخر وهو لا يزال مذهولاً:

- وما دخلك أنت .. ألا تعلم أن ..

قاطعه بلا مبالاة :

- لا داعى .. لا داعى .. فأنا أعرف كل شىء .. وأعتقد أن وجودك الآن بيننا ليس له معنى.

ومن خلال ثورته المكبوتة أجاب صابر الجندى:

- إننى أحمد الله بأننى انتهيت منكما .. ومن الآن لا أريدك ولا أريد شقيقتك الطاهرة لا أريد أن أراكما مرة أخرى .. ولا تحاول الاتصال بى فى المكتب.

ثم التفت إليها قائلاً فى تهكم:

- أما أنت فإياك أن تفكرى فى العودة إلى المنزل مرة أخرى واعلمى أن مصيرك هو الطرد.

وبكل الحقد الذى بات واضحاً فى عين ثريا .. وبكل شراسة المرأة عندما تستشعر بالخطر يهدد حياتها .. وبكل جبروت القادر انتصبت أمامه فى مواجهته تماماً .. وصرخت.

- اخرس يا نذل .. أنسيت من أنا .. ثم أى منزل هذا الذى تتحدث عنه .. وأى مكتب الذى تتوهم أن لك عليه سلطاناً .. لقد حاولت أن أكون معك مهذبة .. ولكن يبدو أن الأمر سيكون مختلفاً .. اسمع يا صابر أنت تعلم أن البيت بيتى .. والمكتب مكتبى .. وأنت لا تملك شيئاً .. و..

- إنها مؤامرة إذن .. إنها أموالى .. سأقتلكما يا لصوص ..

واندفع منقضاً على رقبتها يحاول خنقها ولكنه ما كاد أن يصل إليها حتى تلقى ضربة قوية على رأسه وأتبعها عدة لكمات وركلات من سالم وهو يدفع به إلى الخارج قائلاً:

- أخرج .. واغرب من هنا .. وإياك أن نراك مرة أخرى يا حقير.

ترنح صابر الجندى على السلم وهو يتكئ على الحائط بصعوبة .. مردداً:

- يا لصوص .. يا لصوص .. إنها أموالى .. سأريكما.

كانت خطواته متعثرة ومتهالكة .. متحاملاً على نفسه فى محاولة لاستجماع قدرته لكى يصل إلى المنزل .. كانت الأفكار فى رأسه سكرى .. والأحاسيس فى صدره ملتاعة هائجة .. عيناه تسمرت على صورة ثريا وهى تتلوى أمامه كالأفعى وتكشف عن حقيقة ما كانت تدبره فى الماضى .. كان يتخبط كالأعمى .. فتارة تسقطه عثرة فى الطريق وأخرى تزيده مذلة.

وفى النهاية وصل إلى منزله وكل قطرة فى دمائه تغفلها الحسرة .. ولكنه ما كاد يصل إلى باب الشقة حتى فوجئ بسالم يتصدى إليه وهو يقف لاهثاً متحفزاً بعد أن سبقه إليها .. ثم لاحقه قائلاً بغضب:

- ألم أحذرك من الحضور إلى هنا.

وقبل أن يتفوه صابر الجندى بكلمة واحدة سارع الآخر يدفعه بضربة قدم على صدره الضعيف فأعاده إلى نهاية السلم متدحرجاً بلا رحمة .. وهو يتابعه بصيحاته:

- ماذا تريد منا يا متطفل .. تريد سرقة أموال أختى.

ثم ارتفع صوته أكثر بالقدر الذى جعل الجيران وبعض المارة يتجمعون .. وينتهز سالم تلك الفرصة لكى يقطع عليه فكرة العودة مرة أخرى .. واسترسل فى صيحاته قائلاً:

- اشهدوا يا عالم .. إن هذا الرجل يريد الاحتيال على أختى والبلطجة عليها .. وأننى أحذره أمامكم إذا أعاد الكرة سوف أقتله.

ثم وجه كلماته إليه:

- ماذا تريد يا سكير .. اذهب وابحث عن عمل بدلاً من مطاردتك لسيدة محترمة لا حول ولا قوة لها.

وبصوت مقهور يكاد يصل إلى مسامع الآخرين بصعوبة .. ردد صابر الجندى وهو يحاول الوقوف:

- أموالى .. نهبوا أموالى .. منكما لله .. منكما لله.

وبدأ صابر الجندى يخترق الجمهرة التى تجمعت حوله ..؟ وهو يردد كلماته الضعيفة حتى تجاوزهم إلى الطريق.

كانت الشمس قد بدأت تلملم سواعدها الذهبية استعداداً للرحيل .. وكأنها تشاركه رحيله هى الأخرى .. ولكنها ترحل لتعود .. أما هو فرحيله كان بلا عودة .. لأنه لا يعرف أساساً إلى أين سيذهب لكى يصبح فى مقدوره اتخاذ قرار العودة.

والعودة إلى أين .. ولمن؟

فلقد سقط عرش صابر الجندى الذى عاش حياته متحدياً للأيام .. وخصماً عنيداً لواقعه .. تقوس ذلك القوام المفتول وكأنه بات يحمل أنات كل الحيارى الضائعين .. ويجتر فى صدره حسرة الندم بعد أن خدعته الدنيا قبل أن تخدعه ثريا .. وسخرت منه أحلام اليقظة قبل أن يسخر منه الآخرون أمثال نيقولا وغيره .. وخانته قواه قبل أن يفاجأ بخيانة سالم.

الطريق مظلم مهيب .. خطواته خطى غريب .. زاده ذكريات ألمة و .. رصيده أحاسيس الخوف والاحتياج.

لم تعد قدماه تستطيع حمله .. جلس عند قهوة الترعة البولاقية .. راح يدقق النظر إلى الوجوه .. ويطيل نظرته .. كأنه يبحث عن الحقيقة التى داهمته فجأة، فألقت به على طريق الضياع .. كأنه يبحث عن واقعه البعيد واقع يدرك جيداً أنه لن يعود .. ولكنه الأمل.

واصل مسيرته من جديد، لعله يلتقى بالمقدر له .. قد يكون قدره أرحم وأعدل من واقعه.

ولكن الطريق طويل .. والليل لا يفرق بين العابث والعابس .. ولا بين النادم والظالم .. لا فرق عنده بين أنات البكاء ونغمات الغناء .. الظلمة تكشف فقط كل ما يتلألأ فى جوفها ولا يعنيها إن كان لانصهار شمع أو انزراف دمع.

و .. الطريق طويل .. بدأت عليه رحلة المواجهة الصارخة بينه وبين واقعه والآخرين. فأنكر ذاك نفسه عنه وتعلل الآخر بظروفه العصيبة .. وأخلف ثالث موعده .. وتمنى غيره أن يفرجها الله .. كان صابر الجندى يعود فى مساء كل يوم إلى الجامع ليحتمى به حتى الصباح ويظل طوال ليله يسترجع مواقف الجميع نحوه.

وما أكثر الكلمات التى لن يتبعها فعل.

.. وفقك الله يا صابر أفندى، ليت الأمر بيدى.

.. والله يا صابر أفندى لولا أن ظروفى لا تسمح الآن لكنت فعلت .. وفعلت ... ويكون أحدهم أكثر جرأة فيقطع وعداً على نفسه.

.. يمكنك أن تمر على بعد غد وستجد ما تطلبه.

ويأتى بعد غد ويكتشف أن صاحبه قد سافر فى مهمة طارئة .. أو أن أحد أقربائه فى البلد قد توفى.

هكذا بدأت رحلة صابر الجندى إلى أن انتهت عند (الحاج أمين) تاجر الحبوب والبخور الذى كان أقرب الآخرين فى معرفة



حقيقة وضعه السابق. فكان صادقاً وأكثر استعداداً لمعاونته وخاصة أن صابر الجندى قد طلب مهلة فقط لحين حضور ابنه نظمى من الخارج وهو سيتكفل بتسديد كل ديونه .. وأبلغه بأنه ترك عنوانه حتى إذا جاء من السفر يأتيه فوراً.

ولكن .. ما كان يأمله ويرجوه شىء، وما أراده قدره شىء آخر .. فلقد أتت الأيام بنظمى من الخارج ولكن ليس بمفرده كما ذهب .. لقد عاد ترافقه زوجته الأمريكية الشابة التى تزوجها بعد سفره بعامين وبعودته يعلم ما كان من أبيه وموقفه الخاص بنقل كل أملاكه إلى زوجته الجديدة .. وكانت صدمة نظمى كفيلة بأن تؤتى على البقية الباقية من إحساسه بالانتماء لهذا البيت الذى تمزقت أوصاله منذ زمن بعيد .. فيعود إلى زوجته التى تنتظره بالفندق لينقل لها نبأ وفاة أبيه كأنه بذلك قد أنهى علاقته بشارع شبرا .. وبالمنزل والمكتب .. و .. بكل الممتلكات التى آلت إلى ثريا .. بما فى ذلك أبوه أيضاً.

ويطول انتظار صابر الجندى لولده الغائب .. كما ينعكس ألم الانتظار اليائس على تاجر الحبوب فتتبدل معاملته، وتنكمش يد المعونة تدريجياً .. إلى أن فاجأه يوماً قائلاً:

- والآن يا صابر أفندى .. ما العمل.

أجابه وفى نظرته شحوب المذلة والضعف:

- الفرج قريب يا حاج .. ولسوف ..

ولكن الآخر يقتحم عليه كلماته الواهنة ويتساءل فى سخرية:

- أى فرج هذا يا صابر أفندى .. ما زلت تعيش فى هذا الوهم .. يجب أن تعرف بأن ولدك هذا لن يحضر .. ولن يسأل عنك أحد بعد اليوم .. لقد مضت شهور طويلة وأنت على هذه الحال .. أفق يا رجل.

كان صابر يهز رأسه بعنف كأنه يطرد كلمات الآخر من أذنه حتى لا تجد مكاناً فى فكره وتصوره .. ثم همس بصوت هزيل:

- لا تقل هذا يا حاج .. نظمى ابنى سيعود وسيأتى ليأخذنى .. سيسدد عنى كل ديونى .. لا تقلق يا حاج .. وغداً سيكون كل شىء على ما يرام.

دفع الرجل بيده فى الهواء كأنه يبعد بها تلك الأحلام الواهمة بعيداً عن طريقه .. ثم قال:

- إذا كنت تريد نصيحتى الخالصة .. فعليك أن تبحث عن عمل .. أى عمل يا صابر أفندى .. الدنيا كما رأيت لا ترحم الضعيف .. أيعجبك هذه الحال التى أنت عليها الآن .. لا مال ولا ولد ولا مأوى .. تعيش كل يوم على أمل معجزة من السماء .. إن يحتملك اليوم حارس الجامع فلن يتحملك غداً .. وإن ساعدك أحد مرة فسيفكر فى الثانية ألف مرة .. أفق يا رجل .. ولابد أن ....



ولكنه أمسك فجأة عن الكلام واتجه إليه مسرعاً عندما هزته بعنف دموع صابر الجندى التى تسللت من بين جفنيه دون أن يدرى .. أو أنه كان يدرى فتركها تنزف على حالة .. ثم أخذ يربت على كتفه برفق شديد وهو يتمتم.

- سامحنى يا صابر أفندى .. فأنا لم اقصد إهانتك .. أرجوك أن تسامحنى .. فأنا أطلب لك الخير.. و..

قاطعه بإشارة من يده .. ثم تحامل على نفسه حتى نهض بصعوبة وقد ظهرت بوضوح انحناءة قامته .. وبدأ يخطو خارج المحل وهو يهز رأسه فى أسى مردداً قبل انصرافه:

- أعلم .. أعلم ..

كانت خطواته أقرب للزحف، فما يكاد يرفع قدماً حتى يتمهل برهة قبل أن يدفع بالأخرى ليكمل مسيرته .. عيناه تصارع وهن جفونه بصعوبة بالغة لكى يتمكن من رؤية الطريق أمامه .. كل فكره بات منشغلاً بكلمات بائع الحبوب والبخور الأخيرة، من أجل ذلك قرر أن يذهب بنفسه لكى يتأكد من أن نظمى لم يحضر بالفعل، كأنه يرغب فى أن يثبت للرجل بأنه مخطئ فى تصوره .. وبأن نظمى لم يعد من الخارج حتى اليوم .. يريد أن يتأكد من ذلك لكى يعود إليه حاملاً تلك البشرى لعله لا يعود إلى قوله مرة أخرى .. لعل العالم أجمع يدرك بأنه سيعود إلى مجده السابق مرة أخرى.

ولكن .. لم يستطع صابر الجندى أن يعود إلى الرجل .. بل لم يقو على مواجهة نفسه أو حتى محاولة البحث عن مبرر واحد لما أقدم عليه ولده.

فقط اكتفى بأنه تلقى نبأ عودة نظمى منذ أشهر مضت وأدرك فى حينها بأنه تعمد ألا يبحث عنه .. كانت صدمته فوق طاقته المتهالكة .. وحسرته أعظم من أن يفسح مجالاً للمبررات والتساؤلات .. كانت ابتسامته الباهتة تعبيراً عن إحساس غريب انتشر فى كيانه فجأة كما تنتشر جزيئات القنبلة عند انفجارها .. إحساس بالمرارة التى استشعرها فى حلقه فطفحت على أسارير وجهه وهو يواصل زحفه إلى غير هدى.

فكان مستقره فى النهاية أسفل تمثال رمسيس الثانى .. اتكأ بظهره على قدم التمثال الضخم .. شعر بضآلته عندما رفع عينيه لأعلى ليستطلع قمة التمثال .. زادته النظرة مذلة وخنوعاً، ولكنه بالرغم من ذلك لم يستطع أن يخفض رأسه بسهولة حيث جذبه ذلك الشموخ وتلك الثقة التى بدت فى انتصابه .. حاول أن يتأمله بدقة كأنه يسائله عن أسرار قوته، ولكنه أسقط رأسه فى النهاية مضطراً حيث لم يعد فى استطاعته أن يحمل عنقه أكثر من ذلك .. راح يستطلع الوجوه القادمة من محطة القطار القريبة، خدعته نظرته للحظة خاطفة تصور فيها أن أحدهم هو نظمى وقد عاد باحثاً عنه، ولكن الواقع يرده بعنف إلى الحقيقة فيغمض جفنيه فى يأس كأنه يخفى لنفسه عن مواجهة واقعه:

.. يارب .. إلى أين أذهب .. أهكذا يا صابر أصبحت حملاً ثقيلاً على الآخرين .. أهكذا عشت لليوم الذى تجد فيه نفسك بلا مأوى وبلا سند.

رفع رأسه إلى أعلى مرة أخرى، ولكنه تجاوز قائمة التمثال بنظرته هذه المرة، ثم أخذ يمسح بعينيه سماءه الملبدة بالسحاب كأنه يحصى النجوم المستسلمة فى بطن الغيم.

.. يجب أن أذعن للواقع حتى ولو كنت أرفضه .. يجب أن أتعود بعد اليوم على كل شىء .. وأن أتوقع أى شىء .. الفشل لا ينبت إلا فى الصدور اليائسة، والحياة لا تستقبل إلا مقتحمها .. و .. لكنه انتبه على صوت قد باغته قائلاً:

- ماذا تفعل عندك يا رجل؟

التفت إلى اتجاه الصوت ليجد الشرطى وهو يتفحصه بريبة من فوق رأسه .. ثم عاود سؤاله مرى أخرى .. بينما تحامل صابر الجندى على قوته ونهض ببطء واضطراب كبير .ز ثم أجاب:

- أنا .. أنا استريح قليلاً.

اقترب الشرطى منه بالقدر الذى يمكنه من أن يستوضح وجهه أكثر.

- ألم تجد إلا هذا المكان لكى تنعم بالراحة أسفله .. ماذا تعمل يا رجل .. وأين تسكن؟

ولم يجد صابر الجندى ما يفيد به الشرطى الذى ازدادت شكوكه تجاهه .. ولينتهى به الأمر إلى أن يقتاده إلى قسم الشرطة بتهمة عدم إمكانه إثبات شخصيته.

وأمام الضابط المحقق يدعى صابر الجندى أنه يعمل طرف الحاج أمين بائع الحبوب وبأنه أحس بالإرهاق فجأة مما اضطره للاحتماء أسفل قدم التمثال.

وفى صباح اليوم التالى وقف الحاج أمين أمام الضابط ليؤيد كل ما ادعاه صديقه صابر بلا تردد.

وفى طريق العودة .. كان صابر الجندى يسير بجوار الرجل وهو مطأطئ الرأس زائغ العينين كأنه طفل صغير يقاوم إحساساً بالخجل.

حاول أن يعتذر بكلمات متلعثمة .. ولكنه توقف عن كل شىء .. عن الكلام والسير، وذلك عندما فاجأه الآخر قائلاً:

- وما المانع يا صابر.

- أى مانع .. فأنا لا أفهمك.

لم يهتم الحاج أمين بسؤاله .. واستطرد:

- لديك كل المقومات .. لك نبرة صوت رزينة .. وعينان طيبتان .. وبشرة مضيئة توحى بالتقوى والثقة.

ثم رفع حاجبيه وهو يتفحصه قائلاً:

- أتعرف كم كان دخله فى اليوم .. لقد ..

ولكن صابر يقاطعه فى شغف، كأنه قد سئم تلك المحاورة:

- عمن تتحدث .. وأى مقومات.

وكأن الحاج أمين يحبس أنفاسه على باقى جملته فأطلقها من بين شفتيه دون اكتراث.

- كان يتحصل على أكثر من خمسة جنيهات يومياً.

- من هو.. ثم ..

ولكن نظرته تسمرت فى اتجاهها إلى الأفق كأنه يسبح مع غفوة لذكرى أخذته إلى ماض بعيد .. وذلك عندما صاح الآخر به قائلاً:

- عم فهمى .. صديقك .. أقسم لك أنه جاءنى ذات يوم لكى يساومنى فى شراء دكانى سراً.

ردد صابر الجندى بصوت كالهمس:

- عم فهمى ..

واستطاعت تلك الهمسة أن تسحب وراءها أحاديث طويلة جمعت بينهما ليالى كثيرة .. كان بعدها صابر الجندى قد علم ما كان

لا يعلمه عن عم فهمى .. سواء عن موارده ومصادرها .. وعن كيفية تعامله مع الآخرين .. بل اقترب أكثر من وجهة نظره فى الحياة.

ولم تمض أشهر قليلة حتى كان صابر الجندى قد استطاع وبسهولة كبيرة أن يصبح من اشهر قارئى الكف وبائعى البخور فى كثير من المقاهى والكازينوهات .. وتبدل كل شىء فى داخله وفى أحواله حيث توارت رجفات الخوف عن أعماقه، واستطاع أن يشق أسارير الرضا على وجهه وهو يمارس قول عم فهمى المأثور:

.. لا تحزن .. لا تغضب .. لا تيأس.

وفى كثير من الأحيان كان صابر الجندى يجد صورته القديمة أمام فرائسه الجديدة .. وكم من مرة تراوده رغبة جامحة فى أن يصرخ بأعلى صوته محذراً الآخرين من المصير المنتظر.. أن يخبرهم بما أصابه من وراء استرضاء ذاته العابثة المستهترة.

ولكنه فى كل مرة سرعان ما كان يتراجع عن تلك الرغبة وكأنه يود لو سقط العالم أجمع سقطته، فيعود إلى غرفته الصغيرة التى استأجرها فى سطح بناء شاهق يطل على أحد ميادين مصر الجديدة.

وهناك يقطع أغلب ساعات الليل وهو يستطلع بعينيه وجه السماء فى صمت كئيب لا يشاركه فيه غير اضطراب أنفاسه ونبضات قلبه ثم يغلبه النعاس فيلقى بجسده على الفراش ليصارع

من جديد صدى الماضى فى صدره .. ولكنه لا يفلح دائماً .. فتأخذه الذكرى إلى حيث زوجته الراحلة بدرية .. وإلى ابنته الهاربة سميرة .. وابنه نظمى الذى لابد أنه أساء الظن به .. ثم أخيراً إلى ولده الغائب شريف.

وفى الصباح يعود صابر الجندى مرة أخرى إلى الطريق وهو يزحف بقدميه على الأرض .. ويرعش كفه التى تضم أشكال السبح والميداليات ويقترب من أول فريسة تصادفه .. ثم يوصيها الوصايا الثلاثة ..

.. لا تحزن .. لا تغضب .. لا تيأس.

(٥)

اليوم صيفى من أيام يونيو الملتهبة .. والعرق يتصبب من جباه طلبة طالبات جامعة عين شمس وهم يلتفون فى جماعات متفرقة فى انتظار إعلان نتيجة السنة النهائية .. البعض يخفى ارتباكه بالثرثرة فى موضوعات كثيرة لا نفع منها سوى التملص من التفكير فى النتيجة، والبعض الآخر راح يشغل نفسه بالمشاركة فى حل الكلمات المتقاطعة، بينما لجأ فريق ثالث لوسيلة قاسية من وسائل الهرب من قلقهم، حيث جلسوا على شكل دائرة وبدأوا يستبشرون بالغناء وكأنهم يرددون بتلك الأصوات المضطربة طقوساً مبهمة لإله النجاح، لعله يكون ذا نفع .. فبدت وجوههم مثيرة للضحك، حيث ذلك التناقض الواضح بين نظرات الخوف والترقب وبين شفاههم المبتسمة فى بلاهة وشرود.

ولكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة لشريف الذى اتخذ لنفسه مقعداً بعيداً عن تلك التجمعات وهو يتابعهم بعينين لا تراهم.

فالأمر حقاً مختلف ..

إن ما يشغله الآن إحساس هادئ فرض نفسه عليه فى سلام كما يفرض الفجر وجوده على ظلمة الليل بهدوء أيضاً .. إحساس يحيط بلحظة قد طال انتظارها فانسابت إلى صدره كأنها تزف إليه



بعد رحلة طويلة .. وغريبة كغربة نفسه مع واقعه.

إنه كالآخرين ينتظر نتيجة الليسانس ولكنه لم يكن مثلهم فيما يتصورون ويحلمون .. لكل منهم يدرك إلى من سينقل البشرى .. وكل منهم يعلم أن هناك من ينتظره .. وهم لديهم تصورات وآمال لمستقبل.

أما هو .. فلا يفكر لمن سينقل البشرى، ولا ينتظره أحد .. وهو لا يفكر فى آمال الغد .. فاللحظة التى تسربت مع ذلك الإحساس جعلته يتساءل عما يمكن أن يحدث بعد ذلك .. كانت اللحظة تمثل بالنسبة له نهاية رحلة طويلة بعيدة .. نهاية طريق امتد على سنوات عمره بكل ما فيه من ليالى شقاء وكفاح مريرين مع الزمن .. وقد تكون أيضاً نهاية قصة حب كبيرة جمعت بينه وبين سناء التى زاملته المرحلة الجامعية .. بالرغم من أنها الوحيدة التى استطاعت أن تنال ثقته وأخبرها بكل شئ عن حياته الماضية.

هى تعرف عنه الكثير..

عرفت كيف اعتصر الخوف قلبه الصغير وكم تلوت أمعاؤه من قسوة الجوع ليالى طويلة. عرفت كيف تشققت أقدامه وهو على طريق الضياع والوحدة، بعد أن طرده أبوه.

ولكم كانت تستشعر العذاب فى حلقها وهو يقص عليها كيف كان يتحمل مشقة العمل فى دكان الخراطة، وصدره النحيف

مستسلم لسياط الصهد المندفع من قطع الحديد المتوهجة، وذلك مقابل أن يسمح له صاحب العمل بذهابه إلى المدرسة مع ولده .. وكيف انتقل بعد المرحلة الثانوية إلى عمله الجديد "كمتردوتيل" فى أحد الملاهى الليلية، وأن الليل الصاخب بكل ما فيه من أضواء وضوضاء .. وساعات تذهب بالعقول فى رحلة قصيرة بعيداً عن الرؤوس .. وعلاقات لا تحكمها روابط .. لم يستطع بالرغم من كل هذا أن يخلصه للحظة واحدة من مطاردة ذكرياته الأليمة له فلم يعد الحصول على المال مشكلة فى حياته بقدر ما يؤرقه ويضنيه عدم إحساسه بالانتماء لأحد .. ولأى أحد.

وحتى سناء التى أحبها أو لم يستطع مقاومة حبها .. حتى هى كانت بالنسبة إليه الأمل المفقود .. والحلم الذى لن يتحقق أبداً .. فهى من عائلة ثرية جداً مازالت تحكمها بقايا التقاليد الأسرية .. وهو لا يكاد يحل مشاكله واحتياجاته بصعوبة .. هى تنتمى .. وهو لا ينتمى .. هى تعرف ماذا تريد وإلى أين تذهب .. ولمن .. أما هو فلا.

ولهذا شعر شريف بأن اللحظة التى يعيش فيها الآن تجمع فى طياتها نهايات كثيرة لأمور كانت تشغله فى السباق .. والآن لن يشغله شئ.

راوده خاطر بأن تظهر النتيجة فى غير صالحه .. لعله يجد ما يفكر فيه غداً. ولكن الخاطر اختفى بعد ظهور النتيجة وبحصوله على الليسانس بتفوق كبير .. استدار منصرفاً وهو يلقى بنظرة أحاطت بالمكان كأنه يهمس للجميع بهمسة الوداع.

وداع ... إلى الوحدة:

خطواته على الطريق كان يصاحبها إحساس فى صدره بأن الجامعة قد لفظته هى أيضاً وترفض أن ينتمى إليها.

لم يفقد شريف كثيراً من ملامحه أيام الصبا .. فعيناه مازالتا تحتفظان ببريقهما المميز إلا أنهما استضافتا الحزن رفيقاً لنظراتهما.

وقوامه لا يزال نحيفاً بل ازدادت عظامه بروزاً مع ازدياد طول قامته.

وصل إلى شقته المطلة على ميدان العباسية، وما كاد يستند برأسه على مسند مقعده ليستسلم كعادته لصمت الوحدة . حتى نهض مرة أخرى ليرى صاحب الطرقات المتعجلة على بابه.

فتح الباب ليفاجأ "بسناء" تندفع إلى صدره قائلة:

- شريف .. مبروك يا شريف .. إننى أسعد إنسانة فى الدنيا .. هنيئاً لى ولك .. لقد ..

ثم صمتت فجأة عندما انتبهت لأساريره الجامدة . وتساءلت:

- ماذا بك يا شريف .. ألست سعيداً مثلى .. أم أنك غضبت لمجيئى لشقتك دون استئذان.

دخلت إلى الصالة وأخذت تدير رأسها فى كل اتجاه .. ثم التفتت إليه قائلة:

- شقتك جميلة يا شريف .. أثاثها رقيق .. أشعر بالارتياح بداخلها.

تقدم نحوها وهو يتابعها بعينيه، كأنه لم يرها من قبل .. ولم ير عينيها ذات المقلتين السوداوين .. ووجهها الشامخ الهادئ الذى يتوجه شعرها المتفحم الوقور.. ثم أجاب:

- مبروك يا سناء .. أنا أيضاً سعيد جداً .. وخاصة لما علمت بأنك حصلت على تقدير مرتفع.

جلست والسعادة تملأ عينيها .. ثم قاطعته قائلة:

- المهم أنت يا شريف .. حصولك على المؤهل سيقربنا من تحقيق أملنا .. و..

اندهشت لتصرفه عندما استدار مولياً ظهره لها .. أسرعت إليه متسائلة فى حيرة:

- ماذا بك يا شريف؟

- أبداً .. لا شئ ..

قفزت أمامه .. ثم قالت:

- إذن أخبرنى .. متى ستحضر لتحدث أبى فى موضوعنا.

تجاوزها بخطوات قليلة .. ثم التفت إليها قائلا:

- من الأفضل أن ننتظر قليلاً .. و ..

قاطعته وهى تحدق إليه:

- ننتظر ... كيف ننتظر وأنت تعلم أن ابن خالتى كان فى انتظار نتيجتى لكى يتقدم .. ثم ما الذى يجعلنا ننتظر .. أنا أحبك .. وأنت تحبنى .. كما أن ..

ولكنه انسحب من أمامها ببطء، وراح يطل من النافذة على الميدان .. ثم التفت قائلا:

- سناء .. لقد رأيت بنفسك كيف أعيش .. وتعلمين كل شئ عن إمكانياتى المادية .. وعن ظروفى .. لست أدرى بماذا أرد على والدك إذا سألنى أى سؤال يختص بحياتى .. لست أدرى كيف أجعله يلتمس لى العذر من أجل ذنب لم أقترفه.

وبهدوء كبير تقدمت منه .. ثم قالت:

- إنها مشكلتنا أنا وأنت فقط .. ثم أنا أريدك وأنت تريدنى .. ولا شئ يمكن أن يؤثر فى حياتنا مادامت كل الظروف ملائمة لزواجنا.

انفلتت من بين شفتيه صيحة أفزعتها:

- المجتمع .. الواقع .. الدنيا .. التقاليد التى تحيط بك ومن حولك .. كل شئ فى الدنيا سيتصدى لى .. ولى أنا بالذات فأنت لا

تعلمين شيئاً عن تحدى الزمن كما علمت أنا .. أنت لا تعرفين شيئاً عن قسوة الواقع .. و..

قاطعته فجأة .. وقد اندفعت الدماء بقوة إلى رأسها وهى تدقق النظر إلى عينيه .. قائلة:

- كفى .. كفى خداعاً لنفسك .. أنا أعلم شيئاً واحداً فقط .. أعلم أنك تبحث عن وسيلة للهرب كعادتك .. نعم .. أنت تحاول أن تبحث عن مبرر واحد يقنعك بالهرب من مواجهة الواقع .. هربت يوم وفاة والدتك خشية مواجهة حزنك عليها .. هربت من بائع الحليب وولده لمجرد أنك لم تحاول أن تتصدى لأمر لا يخصك بالرغم من احتمال وقوع جريمة فى ذلك الوقت .. ثم الآن جاء الدور على لكى تهرب حتى من مشاعرك .. أنت لا تريد أن تواجه أحداً .. ولا واقعك .. ولا شىء مطلقاً .. بل لن تفعل أبداً.

اقتربت منه وقد ارتفع صوتها:

- الخوف سيطر عليك .. أصبحت تخاف حتى من عواطفك .. تخاف من نفسك .. الخوف علمك الهرب من المسئولية ومن مواجهة الواقع الذى تعيش فيه .. هربك من حياة زوجة أبيك ومن حياتك فى أول فرصة .. علمك الجبن و..

- اخرسى

تسمرت فى وقفتها حيث قيدها الذهول أمام تصرفه .. بينما استطرد شريف قائلاً:

- أنا لم أجبن قط .. لقد اكتويت بلهيب النار، وما زلت أحمل آثارها على صدرى حتى اليوم .. تشققت أقدامى وأنا أسير على الطريق بحذاء قد هتكته الخطوات التائهة .. عيناى كادتا أن تفقد بصرهما من كثرة دموعهما الملتاعة.. عرفت معنى الحرمان .. حرمتنى الحياة حتى من حقى الطبيعى .. من الانتماء .. حرمتنى من حرية الاختيار حتى فى تصوراتى للمستقبل .. لم أتعلم الجبن ولكنى تعلمت ما هو أقسى من الجبن والهروب .. تعلمت أن الواقع لا يتحدى إلا الضعفاء .. وأن الحياة لا تبتسم إلا لمن يقتحمها .. والدنيا لا تسمح بالبقاء إلا لمن يغتصب منها بالقوة.

جلس وهو فى انفعاله .. كأنه يستسمح قدره بألا يغضب منه لأنه تهور.. ثم استرسل:

- بكيت فلم ينصت إلى نحيبى إلا قلبى الصغير.. ماتت أمى وتركت لى حسرة تفوق احتمال طفولتى، كأنه انتقامها بعد الموت .. وضل أبى لأصبح أنا الوريث الوحيد لكافة ذنوبه .. ماذا تريدين بعد ذلك .. تريدين إعطاء الفرصة لأبيك أيضاً لكى يحطم ما تبقى من كيانى .. أم أنك ترغبين فى أن أدفع ثمن تطاولى وتجرئى على حبى لك .. أنا لم أجبن يا سناء .. ولكن .

قاطعته مرة أخرى وكأنها تتعمد إثارته:

- لم اكن أعلم أن الحقد قد ملأ قلبك إلى هذا الحد .. ولكننى مازلت مقتنعة بأنك لم ولن تستطع فى يوم ما أن تواجه واقعك .. حتى ولو كلفك هذا الكثير.

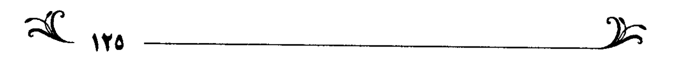
ثم أسرعت فى طريقها إلى الانصراف .. لحق بها دون إرادة لكى يستوقفها.

- سناء .. إلى أين؟

رمقته بنظرة تفحصت وجهه المكتئب ثم استدارت منصرفة. وتركته يلتقط أنفاسه المضطربة وهو يقف يتابعها من خلال نافذته بنظرة يملؤها الحزن .. ثم أغمض جفنيه بقوة كأنه يكتم صرخة مدوية أطلقها قلبه الجريح فى لحظة من أقسى لحظات حياته.

لم تكن سناء بالنسبة إليه مجرد قصة حب تربط بينه وبينها .. قد تكون تلك الرابطة هى منتهى أمل أى إنسان آخر .. إلا هو .. فعلاقتهما كانت أقوى من كل الروابط الأخرى .. وأصدق من أن تتمزق بتلك السهولة أمام أى موقف عابر .. ثائر.

كانت سناء منذ البداية هى ملجؤه الوحيد .. هى نبض الحنان فى عروقه التى كادت أن تتيبس تحت رحى الحرمان .. كانت صدر الأمان الذى يستمد منه الأمل ليقاوم به مخالب الخوف فى حياته ..



كانت كل شيء فى واقعه الحقيقى .. هى أمه الراحلة وأبوه المسلوب وأخته المقهورة .. وأخوه الغائب.

منحته من قلبها كل ما اغتصبته الأيام منه .. عاونته فى أدق مراحل تعليمه .. ساندته دون أن تجرح كبرياءه، كانت تتعمد طوال السنوات الماضية أن تدعى أنها فى حاجة لمزيد من فهم المقررات حتى تستميله للمذاكرة معها باستمرار .. وتضمن بذلك استفادته دون أن يتحمل نفقات الكتب والمراجع .. تحدت من حاول أن يقترب من عرين حبهما .. قاومت رغبة أسرتها بإصرار كبير لكى لا تتزوج من ابن خالتها .. تحايلت على كل الظروف التى قد تحول بينهما .. وفوق كل هذا تحملت منه ما لم يكن ممكناً أن يتحمله غيرها.

لأنها عرفته أكثر من غيرها .. اقتربت من عالمه المضطرب وهى تحسب لكل انفعالاته ألف حساب .. ولأنها عرفته .. أحبته بجنون .. أحبته باقتناع يفوق الاندفاع وراء مجرد رغبة أو عاطفة طارئة .. كان حبهما نظيفاً .. بريئاً .. مجرداً من كل غاية .. وبالرغم من ذلك كان دائماً مصحوباً بالثورة والتوتر .. والشك .. كان يبدو عنيفاً فى ظاهره بالرغم من سكينته ورسوخه فى قلبهما .. كان حباً فوق المستحيل.

ولهذا كانت تلك اللحظة التى تركته فيها هى أتعس لحظة فى حياته، بدا وكأنه قد فقد ذاته التى هرب بها بعيداً عن كل مجابهة

مع الواقع .. لم يكن يدرى بأن سناء قد استطاعت خلال تلك السنوات القليلة أن تنتقل إلى كيانه بكل نبضة فى كيانها.

ولكنها رحلت ...

حاول أن يذيب نفسه فى عمله .. استجاب لبعض العلاقات الجديدة .. انتظرها ليالى طويلة لعلها تعيد الكرة وتعود لزيارته .. كان يقطع الطريق بلا غاية ثم ينتقل إلى غيره لعله يصادفها يوماً.

ولكنها رحلت ...

حتى جاء ذلك المساء الذى لم يستطع فيه شريف أن يقاوم رغبة عظيمة فى العودة إلى المكان الذى طرد منه منذ سنوات طويلة .. قرر أن يعود إلى شبرا لعله يتخلص من أحاسيس الضياع والوحدة .. أو كأنه بهذا القرار يقدم إلى سناء قرباناً يسترضيها به .. أو أنه يحاول بالرغم من قسوة محاولته أن يثبت لها أنه قادر على المواجهة وبأنه سيقبر الخوف فى أعماقه ... لعله بذلك يحطم كل العقبات التى تحول بينه وبينها .. فكان قراره مصدراً للحب الكبير الذى يكمن بين ضلوعه فى إصرار على البقاء.

حتى ولو كانت سناء قد رحلت ...

كان مساء فريداً فى حياته .. كل مشاعره تقوقعت فى أعماقه فى لحظة ترقب لما سيحدث بعد لحظات وهو يقترب من منزله بشبرا.

لم يحاول أن يلتفت إلى أى اتجاه حوله، كما فعل فى عودته الأولى منذ زمن بعيد .. بات مقتنعاً بأن المقابل هو الشريان الوحيد الذى يصل الآخرين بعضهم ببعض .. وهو لا يملك المقابل.

طرق الباب بيد مرتبكة .. وانتظر فى لحظة رهبة سرت فى جسده كما تسرى الصاعقة.

ظهر إليه رجل لم يتذكر قط أنه رآه فى حياته .. فبادره قائلاً:

- مساء الخير .. هل والدى موجود.

أطل الرجل برأسه خارج الباب وعلى شفتيه ابتسامة هادئة:

- والدك ... يبدو أنك أخطأت العنوان.

حاول شريف فى برهة خاطفة أن يتبين الرجل أكثر .. لعله يتذكره .. ولكنه لم يتمكن من ذلك .. ثم أجاب:

- أليس هذا هو مسكن السيد صابر الجندى.

وهنا ذابت الابتسامة .. وتقلصت أسارير الرجل .. وبلا مقدمات انسحب إلى الوراء وهو يغلق الباب بقوة فى وجهه .. مردداً:

- لا أحد هنا بهذا الاسم .. ابحث عنه فى مكان آخر.

توقف فى طريقه أمام مكتب أبيه وهو يعيد قراءة اللافتة الجديدة التى رفعت على بابه .. "مكتب سالم للاستيراد والتصدير".

من هو سالم .. وكيف تحول المكتب إلى الاستيراد والتصدير .. ومن ذلك الرجل الذى ظهر فى مسكنه .. أين سميرة .. أين نظمى .. أين أبى.

كلها تساؤلا ت حائرة أخذته بعيداً عن كل تصوراته التى كانت تدور يخلده فى مواجهته لأبيه بعد تلك الغيبة.

قضى ليلته فريسة للقلق وهو ويراقب الأفق بعينين شاردتين كأنه يتوسل إلى الشروق أن يسرع فى مجيئه.

وفى صباح اليوم التالى كان شريف يجلس فى صالة مكتب أبيه فى انتظار السماح له بالدخول .. كانت الدقائق متوترة .. غامضة إلى أن سمح له بالدخول.

استقبله سالم بترحاب كبير متصوراً أنه أحد العملاء أو أى شىء آخر إلا أن يكون شريف.

- أهلاً .. أهلاً تفضل .. فى الحقيقة أنا أسف لانتظارك بضع دقائق .. فأنت تعلم مسئوليات العمل.

وضحك ضحكة متوددة .. ولم يجد شريف صعوبة كبيرة فى أن يعرفه .. فصورته قد طبعت فى ذاكرته منذ الصبا .. وبلا مقدمات .. ومن خلال ثورة مكبوتة اجتهد فى محاولة السيطرة عليها اقترب منه قائلاً فى حزم:

- أين أبى ...

- ماذا ...؟

وبهدوء ينذر بالانفجار كرر شريف قائلاً:

- سألتك عن أبى .. أين هو؟

كانت ملامح الارتباك والريبة قد بدأت تطفح على وجه سالم..

ثم قال وهو يدعى الهدوء والاتزان:

- من أنت .. ومن أبوك .. يبدو أنك.

ولكنه ابتلع حروف كلماته فجأة، عندما لاحقه شريف.

- أنا شريف الجندى .. أين أبى؟

تغابى سالم وهو يستفسر مرة أخرى عن ذلك الاسم .. ولكن عينيه لم تتح له فرصة المراوغة حيث بدا الذعر والتحفز منهما واضحاً بينما أكد شريف قائلاً:

- أنا شريف ابن صابر الجندى ... لعلك تذكرنى الآن .. أريد أن أعرف أين هو.. ومن ذلك الرجل الذى فى البيت؟

استجمع سالم شجاعته مرة أخرى .. وأجاب وهو يتكئ بظهره على مسند مقعده الفاخر.

- نعم .. نعم تذكرتك .. فى الحقيقة يا أستاذ شريف نحن لم نعد نعرف عنه شيئاً .. بعد ما تم الطلاق بينه وبين شقيقتى .. و..

أفلتت همسة من شريف:

- كيف ... ولكن .. أقصد متى حدث ذلك؟

ازدادت ثقة سالم وبدا أكثر اطمئناناً:

- منذ سنوات لا أذكرها بالضبط .. ربما أربعة أو خمسة أعوام.

- والمكتب .. وهو .. أين ذهب؟

- المكتب .. تنازل عنه لثريا نظير بعض القروض التى كان قد سحبها منها منذ زمن بعيد.

كان الغضب قد بدأ يزحف على أسارير شريف وهو يقول:

- مستحيل ...

ثم نهض فجأة واقترب من مكتبه .. واستطرد وكأنه يتحدث مع نفسه:

- إذن فلقد انتهت مهمته ... ترك البيت أو ربما طرد .. وتنازل عن مكتبه أو ربما أجبر .. ثم رحل .. أهكذا بتلك البساطة .. وتحاول أن توهمنى بأنك وأختك لا تعرفان مكاناً لأبى .. لقد ...

ولكن سالم يحاول أن يقاطعه .. وقبل أن يفعل يستوقفه شريف بعنف:

- اسمع ... أنا لا أحب المراوغة فى مثل تلك الأمور .. فلا

تدفعنى لتصرف لا أحبذه .. ويجب أن تذكر لى الحقيقة .. أخبرنى أين أبى .. و.. سميرة؟

وهنا انتفض سالم من وراء مكتبه كأنه قد لدغ بلدغة عقرب شرس .. ثم قال متلعثماً:

- سميرة .. وما دخلى أنا .. نحن لا نعرف شيئاً كما ذكرت لك .. كل ما أعلمه أن أخاك على ما أذكر كان خارج البلاد .. أما أين والدك .. أو شقيقتك .. فذلك لا يخصنى .. ولا يخص ثريا وخاصة بعد ما أصبحت زوجة لرجل آخر.. وعليك أن تبحث عنه فى مكان آخر.

وبهدوء غير متوقع .. تقدم شريف إليه فى مواجهته تماماً .. ثم قال بنبرة كلها إحساس بالحقد كما لو كانت أحرف كلماته سموماً ينفثها على وجهه المذعور:

- سأبحث عنه ... ولكنى أحذرك من الآن .. إذا علمت بأنك كنت تخفى عنى الحقيقة .. فلن يطفئ بركان صدرى .. إلا قتلك.

ثم تركه منصرفاً.

لم يترك شريف مكاناً توقع أن يجد أباه وشقيقته فيه إلا وطرقه .. وكأنه كان يعايش كابوساً كئيباً ثم تخلص منه مع صحوة الفجر.. كأنه لم يذق المرار يوماً ولم يعان من حياة الوحدة الموحشة .. شىء واحد هو الذى بات مسيطراً على تفكيره ومشاعره هو أن يجدهما.

وبدأت الأمور تتضح له من خلال ثرثرة الأسطى سعيد .. ونميمة "الحلاق" .. وذكريات نيقولاً البقال.

ولكم كانت فجيعته عندما ساقته الأقاويل إلى جارهم السابق الذى التجأ إليه صابر الجندى يوم كان فى انتظار ولده نظمى .. وهناك استطاع شريف أن يلم بأمور كثيرة تصور أنها ستقربه من هدفه ومن الوصول إلى أبيه .. فكان الجار أميناً فى كل ما يعلمه عن صابر الجندى، فأبلغه قصة زوجته الجديدة وبليالى الحرمان و البؤس التى عاشها والده .. وعن ذلك الأمل الكاذب الذى لازمه فترة طويلة وهو فى انتظار نظمى .. وكذلك ما كان من موقف ابنه الذى جردته أنانيته من كل مشاعر الوفاء والبنوة ولم يفكر حتى فى البحث عن أبيه .. كما أبلغه كيف كان والده يحتمى بالجامع ليلاً بعد ما لم يجد مكاناً يأوى إليه .. ثم أخيراً بقصة علاقته الجديدة بالحاج أمين بائع الحبوب.

كان شريف كالمسحور وهو فى طريقه إلى جامع "الخازندار" .. كأنه كيان آلى يسير تحت إرشادات الآخرين .. لم يعد قادراً على تصور أى شىء .. خطواته تزحف به إلى حيث المصير المجهول .. لا يعرف ماذا سيقول لأبيه إذا وجده .. كيف سيستقبله وكيف يسترضيه .. ولا يعرف إن كان سيرضى أم لا .. كل ما يعرفه أنه يريده .. يريد أن يرى أباه كما كان يراه فى السابق جباراً .. شامخاً .. يريد أن يطالبه بالعودة معه لكى يثبت للدنيا أن صابر الجندى لا يقهر كما كان يردد فى السابق.



تردد برهة أمام بوابة المسجد، ثم دس حذاءه تحت إبطه أحس به ينتفض مع نبضات قلبه المرتجف .. أخذ يمسح المكان بعينيه .. يستطلع الوجوه الساجدة والواقفة .. اقترب من أحدهم يسأله عن خادم الجامع، فأشار الرجل إلى حيث يجلس شيخ مسن فى نهاية أحد الأركان .. أسرع إليه وكأنه يلحق بومضة الأمل قبل أن تخبو مرة أخرى.

وبهدوء مصحوب بالرهبة، جلس شريف بجوار الشيخ ثم قال بصوت منخفض:

- السلام عليكم .. يا سيدنا الشيخ.

رفع الرجل عينيه الدقيقتين تجاه شريف:

- وعليكم السلام يابنى.

- جئت أطلب المعونة يا سيدنا .. وأرجو من الله أن يوفقك فى مساعدتى.

مد الشيخ يده وربت على كتفه فى سكينة ثم قال:

- اطمئن يا ولدى .. ولا تخف .. إن الله مع الصابرين.

اقترب شريف من الرجل بعدما ازداد اطمئناناً إليه:

- أريد أن أسألك عن رجل كان يأتى إلى هنا كل يوم ليلاً .. ثم يغادره صباحاً.

ابتسم الشيخ ابتسامة مضيئة .. ثم هز رأسه مردداً:

- بيوت الله مفتوحة للجميع يا ولدى .. وهم كثيرون .. ولكن ألا تعرف اسمه .. فربما.

واندفع شريف مقاطعاً الشيخ بلا إرادة .. قائلاً:

- نعم اعرفه .. أعرفه .. إنه يدعى صابر الجندى .. و..

ولكنه صمت فجأة عندما لم يتبين على وجه الرجل ما ينبئ بمعرفته بينما طأطأ الشيخ رأسه كأنه يبحث فى ذاكرته عن ذلك الاسم .. ثم سأله:

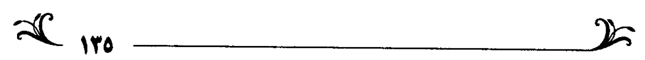
- أكان شيخاً فى عمرى .. وله تقوس فى ظهره .. ويد عليلة بعض الشىء.

أجاب شريف قاطعاً بالنفى.

- أبداً .. أبداً .. إنه فارغ الطول .. عريض المنكبين .. ثابت الخطوة.

- الاسم لا ينطبق على أوصافك يا ولدى .. ولكن الرجل الذى أتذكره كان كما ذكرت لك .. واذكر فعلاً أنه كان يدعى صابر الجندى.

غاب شريف مع أفكاره لحظة .. حاول فيها أن ينفى عن أبيه تلك الصورة التى صورها خادم الجامع .. وكأنه يسأل عن شىء لا يهمه كثيراً .. عاود قائلاً:



- ألا يزال هذا الرجل يحضر إلى هنا.

- لا يا بنى .. لقد انقطع منذ فترة .. ولا يعرف أحد شيئاً عن أخباره إلا رجل يدعى الحاج أمين .. صاحب محل الحبوب الذى فى أول الطريق:

نهض شريف من جانب الرجل، وأخذ طريقه للانصراف بعد أن شكره وما كاد يبتعد خطوتين، حتى استوقفه الشيخ قائلاً:

- انتظر يا ولدى ..

عاد إليه، ثم اقترب منه .. بينما استطرد الرجل.

- إذا لم تجد ما يفيد عند بائع الحبوب .. يمكنك أن تسأل عنه عند أحد معارفه ..

وأشار بيده مسترسلاً:

- هناك على ناصية شارع شبرا رقم "٤" .. فأكيد ستصل إليه وربما تجده .. لأنه كان ينتظر ابنه من الخارج ولعله عاد إليه.

وهنا أسرع شريف جالساً بجانب الرجل مرة أخرى وكأنه تهاوى مضطراً .. ثم تساءل مضطرباً.

- متى كان هنا آخر مرة يا سيدنا .. و..

رمقه الشيخ للمرة الثانية كأنه يبدى دهشته لها الاهتمام المفاجئ .. ثم قال:

- قلت لك يا ولدى أنه انقطع منذ فترة .. مسكين كان دائم الشرود.

ثم التفت إليه وتحسس البساط بيده المرتعشة .. وقال:

- كان هنا مجلسه .. ويظل على حاله حتى الصباح.

أسند شريف رأسه على العامود الرخامى وبدا منهاراً وهو يغمض عينيه كأنه يخفى نفسه بعيداً عن تلك الحقيقة.

اقترب الشيخ منه بصعوبة، ثم وضع كفه على كتف شريف وهمس قائلاً:

- هل أنت الغائب يا ولدى الذى كان ينتظره صابر الجندى.

أومأ شريف برأسه ثم أخفاها بين ركبتيه.

- نعم أنا الغائب .. ولكنه لم يكن فى انتظارى أنا.

ولم يعد فى مقدوره الاحتفاظ بهدوئه أكثر من ذلك .. واضطر فى النهاية أن يستسلم لدموعه التى توالت فى انهارها من بين جفنيه، كأنها هى الأخرى تطلب الخلاص من لهيب البراكين المتأججة فى صدره. وبهدوء كبير تحرك الشيخ من جانبه منصرفاً، كما لو كان يرغب فى تركه وحيداً ولعله يغتسل من آثام تطبق على صدره.

بينما سكن شريف دون حراك وهو يتابع انصراف الرجل بعينين قد غشاهما الدمع حتى كادت أن تحجب عنه الرؤية.

وعاد برأسه للوراء كأنه يعود بها إلى حيث الماضى البعيد.

.. يا حبيبى يا أبى .. كنت شامخاً كشموخ الجبال .. كنت عملاقاً بين كل الرجال. عنيداً، جباراً، قوياً .. لا تعرف الخوف ولا المحال.

يا حبيبى يا أبى .. ماذا فعلت بك الأيام .. أين صابر الجندى.

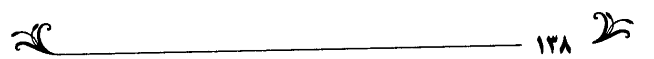
أين أنت يا أبى.

ثم نهض ببطء كبير، وقد بدأت لسعات الدمع تزحف متصلة فبدت وكأنها أخاديد العذاب وقد حفرت على وجنتيه.

كانت خطواته على الطريق هزيلة ومقهورة .. الكآبة امتصت دماء وجهه. فأحاله بلون البحر .. عيناه تتبادل نظرات الحقد والاشمئزاز على كل الصور التى أمامها، فاجأه إحساس بأنه يسير وسط غابة لم يطأها إنسان .. غابة تجمع كل حيوانات الدنيا المفترسة .. والدنيئة أيضاً.

.. يا حبيبى يا أبى .. كنت تضحك ملء فمك، وأنت لا تعلم بما يخفيه القدر .. وكنت تهرب من نفسك كأنك تعلم بما أخفاه ذلك القدر.

يا إلهى .. غفرانك لأبى ..؟ لا تجعله من المقهورين .. اجعلنى فداء له، وارفع غضبك عنه يارب الكون.



توقف أمام دكان الحاج أمين برهة ثم تقدم إليه، وهو ينظر إلى كل أرجاء المحل .. كأنه يتوقع وجود أبيه.

- السلام عليكم .. ألست الحاج أمين.

- نعم أنا .. هل من خدمة يا أستاذ.

- جئت أسألك عن رجل يدعى صابر الجندى.

وقف الحاج أمين فجأة، وأسرع مقترباً منه .. ثم تساءل:

- ماذا حدث له .. هل.

لاحقه شريف وقد ظهرت أسارير البهجة على وجهه:

- لا شيء .. أنا جئت أبحث عنه .. إنه يهمنى كثيراً جداً .. و..

قاطعه الحاج أمين وهنو يتفحصه بدقة:

- ومن أنت؟

اهتزت أهدابه قبل أن يجيب:

- أنا .. أنا ابنه.

ردد الرجل:

- ابنه.

ثم سرعان ما تبدلت ملامحه فى صورة الغضب، واستدار إلى

داخل محله .. ثم التفت قائلاً بحزم:

- صابر أفندى .. ليس له أبناء.

أسرع إليه شريف .. ثم قال:

- كيف .. أنا.

ولكن الرجل يستوقفه بثورة:

- أين كنت أنت .. ألم يكن فى السابق يهمك أمره كما قلت الآن.

أين كنت وقد نهش الانتظار من أعصابه حتى احترقت.

أسألت عنه .. أتذكرت للحظة واحدة أن أباك ينتظرك لأنه فى حاجة إليك .. ألم يقطع من نفسه لينفق عليك فى الخارج لكى تتعلم ... ألم.

حاول شريف أن يفهمه بأنه ليس نظمى .. ولكن الرجل كان قد فقط السيطرة على نفسه وراح يصيح فى وجهه مردداً:

- لعنة الله على أمثالكم .. لعنة الله على أمثالكم .. انصرف من هنا .. أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم .. انصرف .. وأقسم بالله بأنى لو كنت أعرف مكانه لما بحت به لك .. حتى لا تقتلوه بعقوقكم .. صابر الجندى ليس فى حاجة لكم .. اذهب واحتفظ بسؤالك ونقودك لنفسك أو لعلك تشترى بها أبا آخر.

ويعود شريف مرة ثانية للطريق وهو يحمل لعنات ذنب لم يقترفه.

كان إحساسه بالوحدة قد تضخم فى أعماقه إلى حد الانفجار.. راح يدقق فى وجوه الحاضرين فى الملهى كأنه يبحث بينهم عن أنيس .. قطع الطرقات فى كل الاتجاهات والأوقات .. كأنه بذلك يقطع شريان الملل من جسده .. كان يعيش لحظة انتظار متصلة جعلته شارداً بلا إرادة .. انتظاره لنفسه الغائبة لعلها تعود فى لحظة .. انتظاره لظل كيانه بعد ما بات كياناً بلا ظلال .. انتظاره للحب الكبير.. سناء.

وهى أيضاً لم تكن أحسن حالاً منه .. فالعذاب عرف الطريق إلى قلبها منذ اللحظة التى فارقته فيها .. كانت تعلم أن الشوق سوف يمتص رحيق بهجتها .. وتعلم أن الليل سيكبلها بجدائله السوداء حتى تعتصرها الحسرة على فراقه .. كانت تعلم أكثر من ذلك .. ولكن .. هى تريد أن يعود إلى ذاته التى افتقدها، وأن يقبر الخوف فى قلبه .. تريده مقبلاً على الأمل والابتسامة .. تريده متطهراً من إحساسه بالاضطهاد .. تريد شريف .. ولهذا ابتعدت عنه لكى يعود إليها .. كما تريد.

إلى أن جاءت اللحظة التى تساوت فيها بين ما تريده وبين ما يريده الواقع .. لأنها قد أحبته بجنون يفوق حتى إرادتها.



فقررت الذهاب إليه.

وهناك أخبرها شريف بكل ما حدث كعادته معها .. ولكنه أضاف هذه المرة ماسببه فراقها عنه.

فاندفعت نحوه لتحتمى فى صدره وهى تقول:

- لن يحدث مثل هذا بعد اليوم.

تراجع بهدوء إلى الوراء مبتعداً عنها .. ثم قال:

- شئناً أم نشأ .. فالواقع سوف يفعل .. وهو ..

قاطعته وهى تهز رأسها بالنفى:

- أبداً .. أبداً يا شريف .. الواقع هو قرارى وقرارك .. حبنا فقط هو الذى سيحدد كل شىء .. أنا ..

- أنت تتوهمين يا سناء .. الدنيا لا تضحك لأحد إلا إذا وثقت بأنها ستضحك عليه يوماً .. نحن نعيش تحت مظلة اسمها الخديعة، كلنا فى هذا العالم نخادع بعضنا البعض .. وأصبحنا نخادع حتى أنفسنا.

اقتربت منه وهى تحوطه بنظرة حب كبير.

- لا يا شريف .. لا تكن متشائماً لهذه الدرجة.

أمسك بذراعيها بقوة .. شعرت بآلام وهو يغرس أصابعه فى لحمها .. قائلاً:

- متشائم .. اذهبى واسمعى ما حدث لصابر الجندى. اذهبى لتعلمى أن الأمان على هذه الأرض قد قتلناه منذ زمن .. اذهبى يا سناء لترى أن ...

ولكنها أفلتت نفسها من قبضته بصعوبة. وهى تصيح به قائلة.

- ثق أن والدك لا ينظر للحياة بمثل نظرتك لها .. وهو يعلم جيداً أنه يدفع ثمناً لخطيئة فعلها بإرادته .. وغداً يعود إلى ما كان عليه .. ولكن بعدما يغفر لنفسه خطيئتها.

أسقط شريف نظرته إلى الأرض .. ثم همس كأنه يحدث نفسه:

- يعود ..

لاحقته سناء بإصرار.

- أجل عندما يعود .. سنبحث عنه حتى نجده .. و..

رفع عينيه تجاهها فى دهشة كبيرة ثم قال:

- ماذا قلت .. سنبحث عنه .. هل ..

اقتربت منه ووضعت أصبعها على شفتيه وهى تطلب منه ألا يكمل .. ثم همست بصوت حنون:

- نعم يا شريف .. سأذهب معك أينما كنت .. سنبحث معاً حتى نجده .. صدقنى يا شريف فأنا فى حاجة إليه أكثر منك .. على الأقل لكى أستعيدك.

وكانت المرة الأولى التى يتجرأ فيها ويضمها إلى صدره فى عناق طويل وهو يمسح وجهها بالقبلات مردداً همسة فى الأعماق:

- أحبك.

(٦)

كانت الشمس تضرب بسواعدها الذهبية سطح البحر بلا هوادة، وفى نفس الوقت تقتحم المظلات التى تراشقت على الرمال المتأججة، وبالرغم من كثرتها إلا أنها لم تستطع أن تحول دون إرادة ذلك القرص الملتهب الذى جعل المصطافين يهرعون إلى بقعة ظل أو موجة شاردة قد أصابها الإعياء قبل وصولها إلى الشاطئ.

بينما كانت خطوات صابر الجندى تصارع حبات الرمل اللاسعة. فما يكاد يخطو بقدمه خطوة حتى يحار فى الأخرى.

بدت قامته كالقوس العتيق وهو يحشر بين كتفيه أكوام المسابح والأحجبة بينما استقرت رأسه تحت عمامة ثعبانية قد تهدل بعض أجزاء منها، واستغل البعض الآخر فى تثبيت العديد من الدبابيس وحبات الودع المثقوب.

وكلما اقترب من بعض الذين يقع اختياره عليهم يسارع مردداً:

- لا تغضب .. لا تحزن .. لا تيأس .

وما إن يستجب أحدهم إليه حتى يلاحقه قائلاً:

- نعم يا بنى .. فأنا أرشدك إلى السعادة .. وأفتح أمامك أبواب الربيع والهوى.

وما هى إلا دقائق قليلة حتى يستسلم ذلك المستجيب لتعليمات صابر الجندى .. ويكون اللقاء عند أبواب الربيع، وما تلك الأبواب إلا مداخل "خمارات" الإسكندرية التى تتوارى باستحياء فى قلب حواريها، وهناك يمارس الجندى سلب عقولهم، واسترضاء أحلامهم.

فيقول للأول:

- سيسطع نجمك .. ويعلو شأنك .. وتنال ما ترضاه.

ثم يتحول إلى الثانى قائلاً:

- أنت طيب القلب .. كريم فى أموالك وعطوف.

وللثالث يقول مشفقاً:

- أنت مظلوم فى حياتك .. أنت فى حاجة إلى من يفهمك .. و..

وفى النهاية تمتلئ مخابئ صابر الجندى بحصيلة نصائحه .. وحجائبه وبعض من العنبر .. وهى النقود التى يجود بها هؤلاء المظاليم والمتهالكون فى نفوسهم .. وصحتهم.

ثم يعود صابر الجندى إلى حجرته الكئيبة مع وحدته التى لا يشاركه فيها سوى "زجاجة البولاناكى" التى كان يحرص على اقتنائها فى كل ليلة مقتنعاً بأنها الوسيلة الوحيدة للهروب من ذكرياته الأليمة ومشفقاً على نفسه من عذاب الوحدة وتأنيب الضمير.

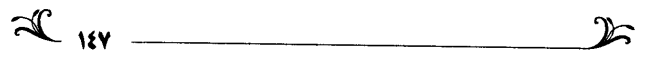
ولكن هذه الليلة لم تكن كغيرها من الليالى.

فما كاد يهيئ نفسه لجلسته المعتادة، وبدأ يستخلص زجاجته من ورقة الجريدة البالية، حتى تسمرت نظرته فوق صورة واضحة أحس بها تحدثه حديث الذكريات، فالتهم الكلمات التى كتبت أسفلها لتتشنج أوصاله ويغوص قلبه فى أعماقه لبرهة شعر بها تعتصره .. وراح يكرر قراءة ما تحت الصورة ("نهنئ الدكتور نظمى صابر الجندى على تعيينه أستاذاً بجامعة القاهرة مع تمنياتنا بالتوفيق، كافة الزملاء").

ربما كانت تلك الليلة الأولى منذ سنوات طويلة هى التى يشعر فيها بأنه لا يرغب فى الاهتمام بزجاجته .. لم يعد فى حاجة للهروب .. بل كان تواقاً لاستجماع كل يقظته .. أراد أن يملأ عينيه من صوره ولده فلطالما انتظر تلك اللحظة التى من أجلها تحمل الكثير.. اللحظة التى جعلت منه ذات يوم يتذوق مرارة المذلة فى حلقه وهو مبتسم .. مرتضياً تارة ومرغماً فى أخرى بأن يعرض كرامته ورجولته فى مزاد المهانة وأسواق الضياع.

ولكن ها هى اللحظة تعود إليه اليوم لتسحب من أعماقه أحزان سنوات طويلة .. وتعيد إلى نبضاته حيوية الشباب.

نهض من مكانه ممسكاً بالجريدة، وتقدم نحو بقايا مرآة مرفوعة على الجدار المتشقق، وراح يستطلع نفسه بدقة كأنه يتعرف



على ذلك الوجه الجديد الذى توارت تجاعيد الألم فجأة من فوقه وذابت أسارير الحسرة من على جبينه.

غاصت نظرته فى صورة عينيه كأنه يبحث فيها عن صابر الجندى فى مجده وجبروته .. حاول أن يشد قامته ولكن آلام ظهره حالت دون ذلك.

تراجع فى تخاذل إلى مقعده واستكان هائماً مع افكاره .. باحثاً عن الوسيلة التى يهتدى بها إلى ولده .. وراحت الأفكار تدغدغ عقله .. والحيرة تسيطر على أعماقه .. وهو يتعايش مع واقعه الجديد .. فى صمت.

.. يا إلهى .. أيمكن أن تبتسم لى الدنيا مرة أخرى .. هل سأرى ولدى الحبيب .. سأرى فلذة كبدى بعد طول غياب.

رفع أصبعه المرتجف وتحسس دمعة ساخنة تسللت من بين جفنه دون أن يدرى .. ثم غاب مع نفسه مرة أخرى.

.. سأضمه إلى صدرى .. أتراه مهتماً بصحته .. لابد أنه قد عانى الكثير فى غربته .. لابد أنه يبحث عنى فى كل مكان .. بالتأكيد رسائلى الأخيرة إليه لم تصله .. أجل لم تصله وإلا جاءنى بأشواقه ولهفته .. سأذهب إليه .. سأستفسر عن عنوانه من الجامعة .. سأقص عليه تلك الرحلة القاسية .. لعله يعرف شيئاً عن شريف .. ربما التقيا.. يا إلهى أيمكن أن تبتسم لى الدنيا مرة أخرى.

تناول الجريدة وضمها إلى صدره ثم استلقى على فراشه .. وغاب فى نعاسه ليكمل رحلة أمانيه مع أحلامه.

وفى ظهيرة اليوم الثانى كان صابر الجندى قد وصل إلى القاهرة .. استيقظ مبكراً على غير عادته .. وحاول بقدر ما تسمح ظروفه أن يبدو فى مظهر حسن، فعالج بقدر الإمكان تمزقات سترته .. وتأكد من نظافة حذائه .. وتخلص من العمامة وما تحتويه ليمشط شعره الأشهب .. لاحظ أنه طويل وفى حاجة لقصه .. قرر أن يفعل ذلك بالقاهرة .. ثم استقل القطار وقلبه ينبض شوقاً ولهفة.

تردد بضع لحظات أمام بوابة الجامعة .. وقف يتابع الجميع من حوله.

راوده إحساس بأن يصرخ بأعلى صوته قائلاً:

.. أنا والد الدكتور نظمى الجندى .. أنا ..

ولكن سرعان ما تخلص من تلك الخاطرة، كأنه يرجئها لحين أن يعلنها ولده بنفسه.

وبعد محاولات عديدة استطاع أن يحصل على عنوان ابنه من مسجل الكلية وبقدر سعادته بحصوله على العنوان بقدر ما أصابه شىء من الخوف .. الفرحة أنسته ما يمكن أن يحتاجه من مصاريف للتنقل.

العنوان فى مصر الجديدة .. وعليه أن يختار إما أن يذهب للحلاق ليقص شعره الطويل أو يذهب إلى ابنه بهذا الشكل .. والنقود لا تكفى للأمرين معاً.

وبلا شعور أندلف إلى أول حلاق فى طريقه وهو يهمس فى صمت.

- يجب أن أشرفه بمظهرى.

ولكن مظهره هذا كلفه الكثير بعد ذلك، حيث اضطر للسير على قدميه يرافقة قرص الشمس الحارق .. يسير الساعة أو جزءاً منها ثم يجبره الإعياء على أن يستريح أسفل شجرة تارة أو يرتكن على جدار فى طريقه تارة أخرى.

كان الغروب قد بدأ يزحف إلى الأفق .. وصابر الجندى يستفسر عن الشارع داخل مصر الجديدة.

أحس بقلبه ينتفض وبالحيوية تدب فى أعماقه، وتراقصت الآمال أمام عينيه وهو يصعد السلم الذى يؤدى إلى شقة ولده .. وبرفق كبير ضغط على الجرس ليصل إلى مسمعه صوت كأنغام البيانو .. ترقب لحظة .. انفلج بعدها الباب لتطل إليه عاملة المنزل وهى تتابع صمته وكأنه كان يتوقع أن يرى ابنه أولاً .. استجمع أنفاسه ثم بادرها قائلاً.

- نظمى .. أقصد الدكتور نظمى موجود.

أومأت العاملة برأسها وأجابت.

- أجل موجود .. بمن نخبره.

تملكه الصمت مرة أخرى .. ثم حاول أن يكون طبيعياً.

- أنا .. أنا أبوه.

اختفت من أمامه فجأة كأن الأرض قد ابتلعتها .. وما هى إلا لحظات قليلة حتى اندفع رجل ناضج متأنق وراح يضمه إلى صدره بقوة ويمطره بقبلاته.

بينما سكن صابر الجندى مستسلماً لأحضان ولده، كأنه كان يتوقع ألا يراه بهذه الصورة المتغيرة .. كان يتوقع أن يراه كما هو فى حجمه الصغير وبنطلونه القصير .. بلا شارب .. وأكتاف عريضة .. وصوت أجش.

انتبه على صوته:

- أبى .. أنا لا اصدق نفسى .. أبى.

هنا فقط استطاع صابر الجندى أن يعترف بالواقع الجديد .. أن يشد من قامته لكى يملك احتضان ابنه وهو يردد.

- ابنى نظمى .. كنت أخشى أن أموت قبل أن أراك .. أحمد الله .. أحمد الله.

كانت مظاهر الثراء تحيط به من كل جانب وهو جالس فى حجرة الاستقبال .. أحس بقدميه تعانيان من رجفة قوية كأنه يخشى على السجاد الفاخر من حذائه القديم .. استطلع بعينيه أرجاء المكان وهو فى انتظار ولده الذى تركه مستأذناً لبضع لحظات .. ثم عاد إليه بكامل ملابسه كأنه على موعد خارج المنزل .. ثم قال مرحباً:

- أهلاً .. يا أبى.

أجابه صابر الجندى بلا تردد.

- أهلاً يا بنى.

ومضت دقائق غير كثيرة وهما يتبادلان كلمات قليلة تزينها المجاملة التى لا تتناسب مع موقف اللقاء .. أو كما كان يتخيل الجندى .. ولكن الأحداث باتت أسرع من تصوراته، فلم تتح له فرصة للتفكير فيما يحدث من حوله، ولا فرصة لترجمة تلك الأحاسيس الغامضة التى هاجمت أعماقه بعد ذلك اللقاء.

ازداد تلعثماً عندما دخلت عليهما امرأة رشيقة .. تميل إلى النحافة، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة.

وقف على أثرها ولده وهو يستقبلها ببشاشة قائلاً:

- أقدم إليك مارجريت يا أبى .. زوجتى.

تحامل على نفسه ليقف هو الآخر بنفس السرعة لكى يستقبلها .. فلاحقته هى قائلة:

- هاللو.

ماتت الكلمات فى حلقه .. ولم يستطع سوى أن يومئ برأسه وهو يشد ابتسامة مرتجفة على شفته .. وكأنه يهمس إلى نفسه ورد بارتباك:

- أهلاً يا ابنتى.

التفت إلى نظمى الذى أطلق ضحكة عالية وهو يقول:

- لا اعتقد يا أبى أنها ستفهمك .. فهى لا تتحدث العربية .. و..

ثم اتجه إلى زوجته التى احتفظت بابتسامتها الباهتة .. وتبادل معها بضع كلمات الإنجليزية .. تصورها صابر الجندى أنها لغة جديدة يتعامل بها أناس تحت الأرض.

ومرة أخرى تظهر عاملة المنزل ولكنها ليست بمفردها حيث توسطت طفلين جميلين لم يتجاوز أكبرهما العاشرة، وهما يحملقان إليه باندهاش كأنهما يستمتعان بالنظر إلى إنسان الغابة.

ويفاجئه نظمى قائلاً:

- جيمى وبوب .. أو جمال ونبيل .. أولادى .. ولا يخدعك يا أبى مظهرهما الهادئ فهما أشقياء للغاية .. و..

التفت إليهما مردداً عليهما بضع كلمات أخرى باللغة التى يسميها صابر الجندى بأنها من تحت الأرض .. ثم واصل ضحكته قائلاً لأبيه:

- ولكنهما أذكياء.

وقف صابر الجندى متردداً .. حائراً .. لا يعرف ماذا ما يجب أن يفعله .. الأطفال لن يفهموه، أحس برهبة من الاقتراب منهما كأنه يخشى أن يخيفهما بمظهره .. أو يخشى على قلبه العجوز من صدمة أخرى إذا ما استقبلا لهفته بكلمة .. هاللو أيضاً.

ولكن سرعان ما رحل توتره عندما أنقذت الأم الموقف دون أن تدرى، وسحبت أطفالها منصرفة إلى خارج الغرفة.

وظل صابر الجندى ساكناً فى مكانه وهو يتابع انصراف الجميع .. مستسلماً لكل ما يحدث حوله .. ثم رفع عينيه إلى ولده كأنه يستأذنه فى الجلوس قليلاً حيث أنهكته مراسم الاستقبال المتلاحقة .. وقبل أن يطلب ذلك بنفسه لاحقه نظمى قائلاً:

- تفضل .. تفضل يا أبى استرح.

جلس ... ولكنه لم يسترح.

إحساس بالغربة داهم كيانه .. شعر بمرارة الحسرة فى حلقه، وهو يختلس النظر إلى ابنه ويتساءل فى صمت كئيب.

.. ألا تسألنى يا بنى عن حالى .. أهكذا .. بعد كل تلك السنوات وأنا أرقب اللحظة التى ألتقى فيها بكم .. ألهذا الحد أصبحت الحياة قاسية. أعود من غربة الدنيا لتتلقفنى غربة الأعماق.



ألا تسألنى يا بنى عن حالى .. ألا يعنيك أمرى .. كيف عشت وكيف أعيش .. و..

دخلت عاملة المنزل وهى تحمل طبقاً كبيراً من الفضة تراصت فوقه أشكال متعددة من أنواع الشكولاته الفاخرة وتقدمت نحوه فى انحناءة بسيطة لتقدم له بعضاً منها ولكنه أشار بيده ممتنعاً ثم قال:

- لا يا ابنتى .. فمرض السكر حرمنى من كل أنواع الحلوى.

سحبت الصينية من أمامه قبل أن ينتهى من كلماته واستدارت منصرفة دون أن تبدى أى التفاتة لأحد.

استطلع وجه نظمى لعله تأثر لمرضه .. أو كأنه ينتظر منه أن يستفسر عن حقيقة المرض .. ومتى حدث .. وهل يأخذ علاجاً .. وكيف ينظم وجباته .. ينتظر منه أسئلة كثيرة .. ولكن ..

مرة أخرى يطول انتظاره .. كان وجه ولده كالجليد .. لا شىء يدل على أنه تأثر ولو للحظة .. وازداد إيماناً بأنه فى واد وأبنه فى واد آخر عندما بادره نظمى قائلاً:

- أرجو أن تكون شقتى قد أعجبتك.

أشار برأسه مجيباً:

- بالتأكيد يا ولدى .. أعجبتنى كثيراً .. فأنت طيب القلب وتستحق كل خير.. و..

وصمت برهة كأنه يستجمع فيها أحرف كلماته فوق شفتيه ثم استطرد متسائلاً:

- هل تعرف شيئاً عن شريف .. أو سميرة.

شعر بالحجرة تدور به .. وبالأرض تميل تحت قدميه عندما لاحظ أسارير ابنه مندهشة .. كأنه يستفسر عن صاحبى الاسمين .. أو كأنه نسيهما .. ولكن نظمى سرعان ما تمالك دهشته أو أنه تذكره فعلاً بعد طول نسيان .. وأجاب باضطراب:

- شريف .. لا .. لا أعرف عنه شيئاً قط.

ثم نهض من مكانه واختفى بضع ثوان، كما لو كان يخفى نفسه من نظرات أبيه الفاحصة .. أو كأنه يحاول أن ينفرد بذاكرته ليستجمع بعض المعلومات عن الماضى.

ثم عاد إليه وهو يحمل سلة أنيقة وبداخلها ثمرات من التفاح وقدمها إليه بتأدب.

- تفضل يا أبى.

ابتسم صابر الجندى وكل أحاسيس الأسى قد طفت فجأة على وجهه وهو يهمس بصوت هزيل:

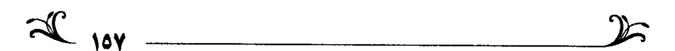
- تفاح .. ألم تلحظ أسنانى المتهالكة يا ولدى .. فأنا أجد صعوبة فى ابتلاع الخبز .. فهل أتجاسر على أكل التفاح.

ارتسمت ابتسامة بلهاء على شفتى نظمى وهو يدقق النظر إليه أبيه كأنه يحاول أن يتبين تلك الأسنان المتهالكة .. ويجد الفرصة سانحة أمامه للهرب من ذلك الموقف عندما استدعته زوجته ببضع كلمات إنجليزية فهرع إليها بلا تباطؤ متحاشياً النظر إليه.

ولم يستطع صابر الجندى فى تلك الآونة أن يواصل مقاومته لصدى أفكاره وأنات أعماقه التى راحت تعصف بمشاعره المسنة بلا هوادة فتلقى به فى أحضان الماضى البعيد تارة ثم تلفظه بقسوة إلى حيث هو فى واقعه الجديد.

تحسس حبات العرق من فوق جبهته ثم تسلل بأصبعه إلى تحت جفنيه يتلمس قطرات دافئة أخرى، حاول أن يقنع نفسه أنها حبات عرق ولكن عينيه تؤكدان تمردهما على رغباته واستسلمتا لانتحار جماعى من مدامعه التعسة .. استسلمتا كما استسلم هو إلى صوت الأعماق وهو يجادل مشاعره المضطربة.

.. كيف لم تدرك يا ولدى ماذا أريد .. كيف لم تدرك مشاعرك إلى ما أحتاجه فعلاً .. أنا لا أريد كلمات معسولة وابتسامات تائهة على الشفاه .. لا أريد طعاماً قد أجده فى مكان آخر .. ولا حلوى ثمينة يمكن أن يشتريها كل من يملك مالاً .. أنا أريد شيئاً آخر .. أريد إحساسك بالانتماء .. أريد انتماء حقيقياً وليس كانتماء الغرباء .. أريد أن أشعر بدمائى وهى تسبح فى عروقك .. وأن أسمع فى صدرى



نبضات قلبك الصغير.. أريد أن أتنسم عطر الزهرة البريئة التى أنبتها من خلال كياتى .. أريد حناناً لا شفقة .. أريدك أنت يا ولدى .. و ..

واضطر صابر الجندى إلى أن يسترد واقعه الغائب عندما ظهر من جديد ابنه نظمى وهو يحاول أن يخفى أسارير القلق والارتباك على وجهه .. فبادره الجندي قائلاً:

- ماذا فى الأمر يا ولدى؟!

ازداد نظمى ارتباكاً وهو يشد على فمه ابتسامة عنيدة فكشفت عن اضطرابه أكثر.. وأجاب.

- لا شىء .. لا شىء يا أبى .. فأنا ..

قاطعه صابر بهدوء:

- أنت كما أنت يا نظمى .. لقد كبرت وأصبحت أستاذاً ولكن بالرغم من ذلك مازلت فاشلاً فى إخفاء مشاعرك وارتباكك.

وصمت برهة وهو يهز رأسه فى طيبة .. ثم استطرد:

- مازلت أذكر وأنت فى الرابعة عشرة من عمرك عندما كنت تحاول أن تخفى عنى أمراً تعلم أنه قد يغضبنى ..

وضحك بسعادة لتظهر أسنانه المتفرقة فى فمه ثم قال:

- ولكنى أيضاً كنت أكتشف أمرك .. كما اكتشفته الآن .. هيا أخبرنى .. أراك مرتبكاً .. أخبرنى ماذا فى الأمر.

اخفض نظمى رأسه حتى تلامست ذقنه مع صدره، وكأنه تلميذ صغير يخشى العقاب .. وهمس.

- فى الحقيقة يا أبى .. أقصد كنت على موعد الآن ونسيته .. ولكن مارجريت ذكرتنى به ..

ولكن .. صابر أسرع مقاطعاً:

- أعرف يا بنى أعرف .. فأنت الآن لديك مسئوليات كثيرة .. وذلك يسعدنى .. و..

ويحاول أن ينهض من مكانه، ولكن نظمى يلحق به قائلاً:

- لا تنهض الآن يا أبى .. فما زال أمامى أكثر من نصف ساعة.

فشل صابر الجندى فى أن يبدو طبيعياً وهو يجيب بصوت خفيض:

- النتيجة واحدة يا ولدى .. النتيجة واحدة.

وأصر على أن ينهض ونجح فى ذلك بمعاونة ابنه الذى بدا حائراً كأنه يبحث فى فكره عما يجب أن يفعله، وعن أرفع أساليب البروتوكول لكى يعامله بها عند انصرافه وفجأة ارتفع صوته وهو يبتعد عنه مرة أخرى قائلاً:

- انتظر .. انتظر يا أبى لحظة .. فأنا أريدك فى أمر هام.وسكن صابر الجندى فى مكانه وهو يحيط بنظرته أرجاء المكان

كالتائه الغريب الذى يتملكه الخوف فيقف لحظة يستطلع فيها موقعه لعله يجد مخرجاً أو يهتدى إلى شخص يعرفه.

لحظات قليلة وعاد نظمى بعدها وهو يخطو بثبات هذه المرة مشدود القامة مبتهج الأسارير .. واقترب منه وهو يمد يده إليه ببضع أوراق مالية .. ثم همس بنبرة فخورة.

- أنا تحت أمرك يا أبى فى أى وقت.

ودس المبلغ فى يده المرتجفة.

ضغط صابر الجندى على النقود بيده كأنه يعتصر تلك اللحظة بين أنامله .. أو كأنه يطحن بقبضته حياته كلها .. كأنه أدرك بأن حياته ما هى إلا عمر كاذب .. ويود التخلص منه.

رفع عينيه إلى نظمى ودقق النظر إليه .. كاد يصرخ فى وجهه .. أن يخبره بما يجول فى صدره .. أن يطالبه بما يريد .. ولكنه سرعان ما تراجع خوفاً من أن تتأذى مشاعر ولده البريئة، وتمالك فى كبرياء عظيم وهو يبتسم لابنه إشفاقاً عليه .. وردد قائلاً:

- أشكرك يا بنى .. أشكرك .. ولكنى.

فقاطعه نظمى وهو لا يزال مزهواً بنفسه وبتصرفه:

- لا تقل ذلك يا أبى .. فأنت أبى ولك كل الحقوق علىّ .. وسأكون سعيداً بزياراتك القادمة لى .. مارجريت نفسها قالت بأن أباك رجل طيب القلب.

تحرك صابر الجندى ببطء متخذاً طريقه للانصراف بينما رافقه نظمى إلى باب الشقة وهو يردد:

- أرجو ألا تطول غيبتك عنا يا أبى .. نحن فى انتظارك دائماً .. و.. أغلق الباب خلفه.

وعلى الطريق مرة ثانية كانت خطوات صابر الجندى تزحف فوق الأرض فى تثاقل كبير. كادت عيناه لا تتبين ما أمامه وهى تصارع غشاوة دموعه التى أبت تلك الآونة أن تهجر جفنيه كأنها تسعى من أجل أن تخفى عنه الحقيقة .. ولكن الحقيقة لم تكن أمامه ولا حوله .. الحقيقة كانت بداخله .. شعر بها تهز كيانه بعنف، أصابت جسده برعشة قوية جعلته يحتمى وراء جدار الفيلا واهماً نفسه بأن لسعة الصقيع قد هاجمته بحلول ظلمة الليل .. ولكن النسمة حوله دافئة .. وأوراق الشجر هادئة فى سكينة على أغصانها .. كل شىء من حوله بدا وكأنه قد تجمد مع أطرافه الباردة .. رائحة الياسمين التى أطلت عليه من خلال الأفرع الرقيقة المدلاة فوق الجدار قد استحالت إلى دخان حريق .. دخان لنيران قاسية، ظالمة التهمت فى جبروتها ذكريات عمر كامل .. عمر حمل على أكتافه أمانى كبيرة وأحلاماً عريضة .. التهمته بنيران الوهم ثم ألقت به إلى مقبرة الحرمان.

تراخت أوصاله فجلس مضطراً .. مهموماً .. يبحث فى صدره عن حقيقة واحدة تدله على صدق ما يحدث فلم يجد إلا صدى أعماقه

وهو يلح على تفكيره، ويسيطر على كيانه كله؛ ولم يجد مفراً غير الاستسلام .. جذب انتباهه إلى داخله كما لو ترامى إلى مسامعه من يهمس إليه قائلاً:

أنت السبب يا صابر..

.. كيف تغضب من تصرف ابنك وهو صورة كاملة منك .. من طباعك وتصرفاتك .. ومبادئك .. كيف تحزن على نبتة رويتها بإصرار بأن تكون كما تريد .. وباتت كما تريد.

نظمى اليوم هو نفسه صابر الجندى بالأمس .. كنت فى شبابك تقيم كل شىء حولك حسب إمكانياتك .. أصبحت تعامل الآخرين بقدر ما تضمه خزانتك .. كنت تشترى سعادتك ونزواتك مقابل انتمائك لأطفالك .. أردت أن تحصل على مالا يجب أن تحصل عليه، فجاء دورك لأن تدفع المقابل .. الذى جعلك اليوم كأنك كيان بلا ظلال .. و..

انهمر فى بكاء مرير كاد أن يلفت نظر بعض المارة .. استطاع بعد جهد كبير أن يتمالك نفسه كأنه يصر على مواصلة الحديث مع ذكرياته .. وهمس إلى نفسه من جديد.

.. الانتماء .. تبحث عن الانتماء عند ابنك وأنت أول من قبرته داخل بوتقة نزواتك.

وما كاد صابر الجندى يهم بالوقوف لمواصلة سيره حتى تسمر

فى مكانه عندما اقترب منه شاب برفقة فتاة وهما فى شبه تأثر ودس الشاب فى كفه بضعة قروش ثم واصل خطواته وهو يتأبط ذراع فتاته.

وبلا تردد تحسس الجندى سترته وعبث بأصابعه فى الأوراق النقدية التى فى جيبه وهو يتابع الشاب وفتاته بنظرة باكية .. وبصعوبة بالغة اتكأ على الجدار لكى ينهض .. ثم أوقف أول سيارة أجرة فى طريقه، نقلته إلى محطة القطار.. ولكنه أحس برغبة قوية فى ألا يترك القاهرة التى تحمل أنفاس ابنه إليه .. وتراجع من أمام شباك الحجز وجلس على مقعد قريب يجتر آلامه الدفينة فى أعماقه .. تلفت حوله كأنه يبحث عن نفسه وسط الجموع الذاهبة والعائدة، ولكنه أغمض عينيه فى يأس ومذلة بعدما عاوده صدى أعماقه هامساً إليه.

.. أنت السبب يا صابر.

وغاب مع أحلام اليقظة .. باحثاً معها عن أمانى مكبلة بقيود الواقع .. حاول أن يستميل أنانيته ويحرض مشاعره على نظمى .. ولكنه فشل.

.. ما بالك يا صابر . يجب أن تعترف بالواقع .. أنت اليوم تحصد محصول أيامك .. لابد وآن أبناء الدنيا يحسدونك .. ابنك بات صورة منك .. بل خير منك ..لابد أنك محظوظ فى هذه الحياة .. أولادك نقلوا عنك خير ما فيك .. هكذا علمتهم .. هاهو نظمى حصل على الدكتوراه ليعلم أجيالاً من بعده .. لعلهم يصبحون مثله ذات يوم .. و ..



ثم تجول بعينيه فجأة تجاه الزحام كأنه تذكر إنساناً ما كان عليه أن يتذكره .. أو يبحث عنه.

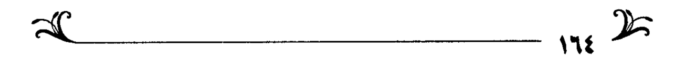
ثم ألقى برأسه على مسند المقعد الخشبة وهمس بتردد .. وباستحياء.

.. و.. شريف ..

تراه هل أصبح طبيباً أم مهندساً .. أم مجرماً .. أم شريداً .. أم عالماً .. أم قتيلاً .. أو..

يارب .. بث فى قلوبهم كراهية الدنيا تجاهى .. اجعل من أولادى عصاة ذوى قلوب عاقة .. اجعلهم لا يرحموننى لعلهم لا يصبحون مثلى ذات يوم .. لعلم يخطون على طريق غير طريقى.

ثم أغمض عينيه فى سكينة هادئة ورحل مع نعاسه دون أن يدرى.



(٧)

كان صباحاً ممتعاً .. ونسمة رقيقة تمرح فى كل اتجاه وكأنها عصفور سعيد راح يقفز على الأغصان مغرداً فيجعلها تتمايل طرباً .. والشمس مترفقة فى شروقها، تحيط الدنيا بدفء حنانها .. الابتسامات تعلو الشفاه .. كل الشفاه، والعيون تسبح فى لحظة ترقب، هائمة فى نظراتها ومنتشية فى لفتاتها .. نبضات القلوب كانت تدق طبول الفرح وكأنها تزف ذلك اليوم إلى عروسه الحياة فى احتفال رائع بهيج.

هكذا بدت الدنيا فى نظر شريف وهو يستمع إلى سناء وهى تنقل إليه نبأ موافقة أهلها ليتقدم لخطبتها.

ومنذ ذلك اليوم تعايشت لقاءاتهما بين أحضان أحلامهما الوردية، باتت متعتهما فى الحديث عن المستقبل لا توازيها متعة .. كانت سناء تصور له عش السعادة الذى سيجمع بينهما .. وهو يحدثها عن مدخراته التى ستمكنه من أن يهيئ لها الأمان والاستقرار .. كانت ليال طويلة تمضى وهما يحلمان بشكل الشقة وأثاثها .. والسيارة الجديدة التى سيتعاونان على تسديد أقساطها بعدما تلتحق هى بالعمل .. لم يعد الحب بينهما مجرد كلمات تطرب القلوب أو همسات ترتعش من خلالها الأنفاس .. الحب بات شيئاً

آخر بالنسبة لهما .. بات الحب بمثابة تخطيط للمستقبل ومواجهة الواقع بكل صعوباته .. حتى مشكلته النفسية استطاع أن يحاصرها أمام نظرته الجديدة للحياة وأن يقنع نفسه بأنها مشكلة لا تخضع إلا لقبضة القدر.. وللقدر وحده فقط.

ولكن .. وكأن القدر أراد أن يذكره بأنه ليس بغافل عنه .. وبأنه لا يخضع لمشكلته فقط بين قبضته بل ويخضعه هو نفسه .. وبأنه لا يزال يخبئ ف جعبته الكثير من الأحداث التى تصورها شريف ذات يوم بأنها قد قبرت مع الماضى.

كأن القدر جاء ليذكره بأنه ابن الذكريات .. والذكريات لاتموت.

ولكن .. ابتسامته هى التى ماتت على شفتيه، وشعر بدوار عنيف كاد أن يسقطه على الأرض بين الموائد وهو فى أثناء عمله .. باتت المصابيح المتلألئة بألوانها كأنها جمرات لهيب تتقاذفها أمواج الماضى لتلقى بها فى جوف مقلتيه. وبصعوبة بالغة تمالك نفسه وهو يركز نظرته على إحدى الموائد التى جلس حولها العديد من الرجال والنساء وهم يتمايلون برؤوسهم طرباً مع أنغام الموسيقى.

تقدم خطوة وهو يدقق النظر إلى أحدهم .. ولم يستطع أن يحبس كلمة أحس بها تندفع من أعماقه .. وهمس لنفسه:

.. هو .. أجل هو.

كان سالم هو ذلك الجالس المتأنق .. بنفس النظرة الصقرية والوجه الأملس الذى لا يحمل إلا أسارير الوقاحة والتبجح .. كانت الأضواء تسطع وتخبو عليهم جميعاً .. ولكن شريف لا يراها إلا محاصرة لسالم فتظهره تارة وتواريه تارة أخرى فى الظلام .. لم يستطع أن يمنع نفسه من الاقتراب خطوة أخرى وهو يسلط نظرته إليه كالمسلوب كأنه يقترب من الماضى ولكن بحذر كبير. فهو يعلم أن للماضى مخالب سوداء ولطالما قاسى من قبضتها اللعينة.

وبدون أن يدرى شعر بنفسه يتعايش مع واقع آخر غير واقعه .. صور متعددة، من نفحات الماضى بدأت تتراقص أمام عينيه.

وبدأت تلك الصورة تغذى فى أعماقه إحساساً جديداً تسلل إليه .. إحساساً لم يسبق أن تعامل معه حتى فى أحلك ظروف حياته .. كان شعوراً بالحقد الدفين .. بدا وكأنه قد أسقط عينيه داخل أعماقه وهو يشهد الضباب الأسود وهو يزحف إلى صدره رويداً رويداً حتى أحاله إلى ظلام دامس لا يبرق فيه إلا أنياب الحقد .. والرغبة فى الانتقام.

وبهدوء كبير كالثعبان الزاحف للانقضاض على فريسته تقدم شريف إلى المائدة وهو يضع على فمه ابتسامة العمل وفى انحناءة متأدبة بادرهم قائلاً:

- هل من خدمة أخرى أؤديها ..



التفت إليه أحدهم وهو من الرواد الدائمين وأجاب والنشوة تلعب برأسه:

- الخدمة الوحيدة يا شريف أن توقف لنا الزمن لكى تطول تلك الليلة الرائعة.

وهو يشير برأسه تجاه الراقصة التى استطاعت أن تسرق اتزان الجميع .. ثم أطلق ضحكة مقهقهة منشغلاً عنه.

وشعر شريف أنه لم يحقق ما أراده .. فاستجمع كل ثباته وهو يهمس من وراء سالم قائلا:

- نحن سعداء بوجودك يا سالم بك.

استدار سالم برأسه ليرى محييه، وما كادت عيناه تلتقى بوجه شريف حتى انسحبت الدماء فجأة من وجهه وبدا شاحباً فى ذهوله.

ويلاحقه شريف بابتسامة خاصة كأنه يقطع عليه التفكير فى الماضى قائلاً:

- ليتنا نراك كثيراً بعد ذلك.

وقبل أن يحرك سالم ساكناً تدخل أحدهم باستكبار وفضول:

- هل تعرف سالم بك يا شريف.

ثم نظر إلى سالم مستطرداً:

- أنت تحضر دون علمنا يا سالم بك .. لتستمتع وحدك.

وراح يقهقه بكرشه الكبير قبل فمه.

ولم يجد شريف خيراً من تلك الفرصة لانقضاضه على فريسته.. فهمس بتأدب.

- سالم بك لا يجهله أحد .. فهو خير خبير لاقتناص ابتسامة الليل كلما أراد.

هنا فقط بدأت الدماء تزحف مرة أخرى إلى وجه سالم الذى احتفظ بصمته مضطراً عندما تدخل ثالث قائلاً:

- إذا كان الأمر كذلك .. فهذا يحتاج إلى جلسة خاصة لنعرف كل الخبايا عنك يا سالم بك.

وارتفعت الضحكات مرة أخرى .. ومن خلالها تحمس الأول قائلاً:

- ويكون برفقتنا شريف لكى يذكره إذا حاول أن يتناسى.

وواصل الجميع تعليقاتهم الساخرة والضاحكة .. بينما كان سالم يختلس بين الآونة والأخرى النظرات إلى شريف الذى بدا طبيعياً وكل علامات السعادة والصدق تطفو على وجهه .. ثم انحنى بتأدب مرة أخرى مبتعداً عن مائدتهم.

وكان الموقف أكبر من توقعاتهم عندما فوجئ الجميع

بزجاجات أخرى من المشروبات الروحية وامتلأت المائدة بالعديد من أطباق العشاء وباهتمام زائد من العاملين تجاه تلك المائدة. مما أثار أكثرهم فضولاً وتساءل مستفسراً عن الأمر .. فربما تكون الطلبات جاءت عن طريق الخطأ ولكن المشرف على المائدة يشير تجاه سالم قائلاً:

- ذلك على شرف سالم بك.

وكأن لدغة عقرب قد استقرت فى جسد سالم والتفت كالمذعور تجاه شريف الذى يراقب الأمر على مقربة، وبادره بابتسامه عريضة وإيماءة خفيفة تعبيراً عن احتفائه به وسرعان ما ذاب التوتر الذى شمل الجميع فى بادئ الأمر.. وراح الواحد تلو الآخر يعبر عن امتنانه لسالم بك الذى لم يستطع سوى أن يرسم ابتسامة باهتة على شفتيه دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

ولكنه فى النهاية لم يستطع الاحتفاظ بأعصابه الباردة، ووجد نفسه مدفوعاً لمعرفة حقيقة ما يدور حوله .. فتسلل من بينهم وهم لاهون مع الرقصات المتشنجة .. والأضواء العابثة .. وأخذ يتجول بعينيه باحثاً عن ضالته حتى وجدها .. واقترب من شريف الذى تعمد انشغاله عنه .. ثم فوجئ به هامساً:

- أستاذ شريف .. هل لى أن أعرف ما يدور بخلدك.

ابتسم شريف ببراءة وأجابه:

- ربما تكفيراً عن خطأ ارتكبته معك ذات يوم .. وظننت السوء بك.

دقق سالم النظر إليه .. كأنه يبحث عن خيط يؤكد شكوكه .. ولكنه لم يجد غير نظرة الصدق .. فبادره بتحفظ:

- ما زلت فى حاجة لمزيد من التوضيح .. و..

قاطعه شريف بتأدب:

- هل تسمح بأن تكون تلك بادرة لروابط الصداقة بيننا مستقبلاً.

انفرجت أسارير سالم، وبدا وكأنه تخلص إلى الأبد من كابوس أثقل كاهله سنوات طويلة وسارع ببلاهة كأنما يغريه بمميزات تلك الصداقة.

قائلاً:

- إذا كان حقاً ما تقول فسأجعلك لا تندم على صداقتى.

تلفت شريف حوله متصنعاً الارتباك ثم قال:

- أنت تعلم يا سالم بك أن ظروف عملى لا تسمح بالحديث الآن فما رأيك لو التقينا غداً.

ثم رمقه بنظرة تحمل معانى كثيرة يدرك شريف جيداً أنها ستثير لعاب سالم واستطرد:

- على الأقل لأخبرك عن أشياء كثيرة تهمك عن أصدقاء المائدة.

مرة أخرى يتهلل وجه سالم وهو يهمس إليه فى تلصص غريب.

- إذن غداً فى السابعة مساء .. سأنتظرك فى كافيتيريا الهيلتون.

.. ردد شريف فى داخله.

.. كافيتيريا الهيلتون .. أصبحت تذهب للهيلتون يا سالم.

ثم أجاب ببشاشة:

- اتفقنا

وكان ذلك الاتفاق هو بداية للقاءات متعددة وفى أماكن مختلفة استطاع شريف خلالها أن يكتشف الكثير عن طبيعة سالم من الداخل .. عرف عنه الولع بالمظاهر كتعويض لثقافته الضئيلة .. وحبه الكبير للتقرب من الشخصيات المعروفة إكمالاً لذلك النقص الذى يستشعره بداخله .. عرف عنه الاستهتار والأنانية المطلقة .. وبأن رأسه لا تحمل إلا الفراغ .. عرفه إنسانا بلا قيم ولا مبادئ .. إنسانا يطوع ضميره حسب المواقف التى يوجد فيها .. أدرك أن سالم من الشخصيات التى تقدم على أى تصرف مهما كان مشينا فى سبيل أغراضه ونزواته. عرف عنه التفاهة فى فكره لدرجة أنه يبدو

أسعد إنسان على الأرض إذا ما ترامى إلى مسامعه من يناديه بسالم بك وخاصة إذا كان يقبل على أمور يندى لها الجبين .. أمور لا يقدم عليها إلا أمثاله.

استطاع شريف من خلال كل هذا أن يسيطر على فكره وأن يكسب ثقته وخاصة أنه كان يتجنب الحديث عن الماضى حتى لا يثير شكوكه نحوه إلى أن جاءت الفرصة لكى يستقطبه تماما إلى حياة جديدة وفاجأه بقوله:

- ما رأيك فيمن يجعلك ترى عالماً لم تكن تحلم برؤيته يوماً.

انتبه إلى حديثه وقد لمعت عيناه فى شغف متسائلا.

- أى عالم .. فمنذ التقينا وأنت تفتح أبواب السعادة أمامى.

لم يعره شريف اهتماماً واستمر فى حديثه:

- هناك ليس مسموح بالدخول لكل إنسان .. لأنك ستجد كبار المليونيرات .. والشخصيات المرموقة ورجال الأعمال الناجحين .. وكثيراً من نجوم الفن .. وشخصيات كثيرة من جنسيات مختلفة.

ردد سالم كالمسحور:

- نجوم الفن .. تقصد ممكن أن أتحدث معهم ..

هنا فقط أبدى لسؤاله اهتماما .. ونظر إليه كأنه يخضعه تحت سيطرته بتأثير التنويم المغناطيسى .. ثم قال:

- ويمكنك أيضاً مجالستهم

لاحقه بلهفة:

- كيف؟

فأجابه بلا اكتراث.

- فى صالة القمار .. فبعضهم يلعب الورق .. والبعض الآخر يراهن على لعبة الروليت .. وكثير منهم يذهب لمجرد التعارف.

شرد سالم بفكره للحظات قد ابتأست ملامحه كأنه فقد أملا كبيراً راوده طويلا .. ثم انتبه على صوت شريف مستفسراً.

- ما بالك تصمت هكذا.

أطلق زفرة من صدره ثم أجاب:

- ولكنى لا أجيد لعب الورق .. ولا أعرف شيئاً عن الروليت.

ضحك شريف ضحكة من القلب قبل أن يبادره:

- لا تخش شيئاً فأنا لى صديق يعمل هناك سأجعله يلقنك كل خبراته .. ثم بعض اللعبات تحتاج إلى الحظ .. و ..

صمت برهة استطرد بعدها

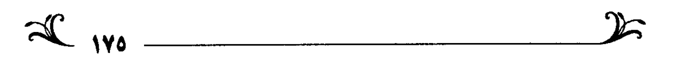
- وأعتقد أنك محظوظ يا سالم بك.

وبدأت نهاية سالم تلوح فى أفق مستقبله بعد ذلك اللقاء .. حيث بهرته الشخصيات التى حوله وهو يدفع ثمن هذا كل ليلة على موائد اللعب المختلفة مع خسائر مستمرة، ولكن إحساسه بالفخر لمجرد مجالسة تلك الطبقة جعله يصاب بهلوسة الغرور التى بدت واضحة فى تصرفاته وأحاديثه مع الآخرين .. بينما كان شريف يتابعه كل ليلة بعد انتهائه من عمله .. فيسرف إليه كأنه يشبع رغبته القوية فى الانتقام منه بأن يشهد على انهياره وسقوطه أمام عينيه كما أسقط سالم شقيقته سميرة أباه ذات يوم.

وبدت الأمور تسير حسب رغبة شريف، إلا أنه فوجئ بموقف سناء التى تصدت بعنف لتصرفاته الغريبة على حياته ولكنه لم يكن فى استطاعته أن يكبح جماح ثورة الحقد التى اندلعت فى أعماقه ولم يعد فى مقدوره أن يرضيها ..

ولكنها لم تيأس فى محاولتها .. باتت تحرضه ضد تلك المشاعر الدخيلة .. تطالبه بأن يقبرها فى طيات النسيان .. أرادت أن تستعيده كعهدها به .. شريف الشريف النقى القلب، الصافى النفس .. الهادئ البال .. حاولت أن تستميله باسم حبها الكبير بألا يلقى نفسه فى دوامات الحقد التى لا محال سوف تنال منه.

ولكنه بات عنيداً على غير عادته .. قاسياً فى كلماته وأحكامه .. حاقداً فى أحاديثه حتى مع نفسه.



ولم تجد سناء فى النهاية مفراً من مواجهته بحقيقة ما يدور فى خلدها. وبادرته وهى تخفى بركانا متأججا فى صدرها قائلة:

- شريف يجب أن تضع حداً لتلك اللعبة غير المسلية.

أحاطها بنظرته والدهشة تملأ عينيه:

- اللعبة ... تقولين لعبة وأنت أقرب الناس إلى نفسى .. وتعلمين الحقيقة .. و ..

قاطعته بشىء من الحدة:

- الحقيقة أنك استسلمت لرغبة دخيلة على صدرك .. رغبة الانتقام ولا بد أن تعلم بأنك لن تصل إلى شئ .. سوى افتقادك للكثير من صفاتك الحسنة .. من أجل وهم تعيش فيه.

أشاح بوجهه عنها وهو يتمالك أعصابه الثائرة قائلا:

- وهم .. الليالى الطويلة التى قضيتها شريداً مطارداً .. كانت وهما .. عذاب الخوف وبطش الزمن .. كان وهما .. ما حدث لأبى واخوتى كان وهما .. الضياع الذى ..

ولكنها قاطعته بحدة أكثر:

- أنت لا تحاول الانتقام من سالم .. أنت تريد أن تنتقم من المجتمع من خلاله .. جعلته وسيلة لتشبع رغبتك فقط.

وهنا التفت إليها صارخاً:

- كفى ..

ولكنها لاحقته:

- لا .. لن أصمت .. قبل أن تسأل نفسك .. ماذا تريد بالضبط يا شريف؟

ضغط على كتفيها بكلتا يديه وهو يهزها برفق.

- تريدين أن تعلمى ماذا أريد .. سأقول لك .. أنا أريد حق أبى الذى اغتصبوه منه .. أريد أن أحطم كل من تسبب فى تشتيت أسرتنا المسالمة .. أريد أن أنتقم لأمى .. و ..

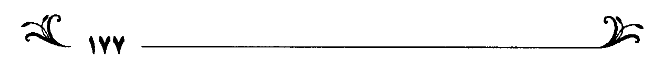
تخلصت من قبضاته وهى تقول باصرار:

- أنت تعلم أن أباك هو المسئول.

وبدون أن يدرى هوى بكفه على وجهها بصفعة قوية جعلتها تميل إلى الأرض ولكنها تمالكت بسرعة وهى تتحسس مكان الصفعة وفى عينيها نظرة أسى وحسرة .. ثم همست:

- ألم أقل لك بأنك سوف تفقد الكثير.. ولقد بدأت بى يا شريف.

واستدارت منصرفة .. بينما تسمر هو فى مكانه مذهولاً لتصرفه وهو يتابعها بنظرة ندم عميقة.



لم يستطع شريف فى تلك الليلة أن يغمض جفنيه .. كان الليل طويلاً وكئيباً. هاجمته كل أحاسيس الخوف والوحدة فجأة بعدما تخلص منها منذ فترة طويلة .. شعر بالفراغ يحيط به وتسلل إلى أعماقه. وكأن صفعته لسناء قد أيقظت فى داخله أنات قد توارت وراء أحلامه الجديدة للمستقبل .. ولكنه الآن بدأ يشعر مرة أخرى بأنه ضائع .. تائه.

استلقى على فراشه فى محاولة للهرب من صدى كلمات سناء وهى تردد عليه

.. أنت لا تعرف ماذا تريد.

أحس بها كأنها طبول لطقوس العودة إلى غربته مع نفسه .. أغمض عينيه وهو يعلم أنه يخادع نفسه، وغاب مع أفكاره الحائرة .. والثائرة.

.. ما الذى تريده يا شريف .. يجب أن أواجه الحقيقة .. أن أعترف بها .. أحقاً أرغب فى الانتقام من المجتمع .. لا .. أنا لا أرغب فى هذا .. على الرغم من أن من حقى ذلك .. مسكينة سناء .. أرادت أن تجذبنى إلى طريقها الهادئ الآمن. فهويت بها إلى ظلمات أعماقى. أرادت أن تمنحنى السعادة والسكينة فمددت يد التوتر إليها. حقاً ماذا أريد .. تمردت على هبة السماء التى منحتنى المال والاستقرار .. تمردت على واقعى الذى كافحت طويلا من أجل أن أصل إليه .. وكأنى مصحوب بلعنة أبدية لا تهدأ إلا بحيرتى. تمردت على الحب.

فماذا أريد .. كأننى أبحث عن خطيئة لم أرتكبها لأكفر عنها .. إلهى أحقاً أنا برئ فى مشاعرى .. ليتنى أكون كذلك.

وفى اليوم التالى لم يكن شريف فى حالة تسمح بالذهاب إلى عمله الليلى وقرر أن يخبرهم بغيابه ثم يعود ليبحث عن سناء ليقدم إليها اعتذاره وأسفه على ما فعله معها.

وهناك فوجئ بسالم يقف فى انتظاره والارتباك يشمل كيانه ، وما أن أقترب منه حتى بادره بكلمات متلعثمة.

- أستاذ شريف .. أحمد الله .. أستاذ شريف .. أرجوك أنا فى حاجة إليك .. فى حاجة إلى معونتك ..

حاول شريف أن يهدئ من روعه، ولكن اضطراب الآخر جعله يثرثر دون وعى إلى أن استوقفه شريف قائلا:

- ألا تهدأ حتى أفهم ما تريده.

فوجئ به يطلب منه أن يقرضه مبلغاً من المال لا يتجاوز الألفين حتى يتمكن من تسديد ديونه المستحقة عليه بشيكات اضطر لتحريرها بدون رصيد أثناء وجوده فى صالة القمار.

وبلا تردد أجابه شريف قائلا:

- أنا لا أنكر عليك .. فأنا أملك هذا المبلغ حقاً .. وربما أكثر بقليل ولكنى أدخره لمتطلبات زواجى ممن أحبها .. و..



وتبدو شخصية سالم الهشة عارية تماماً .. وراح يتذلل تارة ويعده تارة أخرى بالسداد فى أقرب وقت.

بينما سكن شريف يراقبه فى صمت:

.. ألهذا الحد يسخر القدر منى .. الإنسان الذى أردت أن أحطمه يطلب منى المعونة .. وأفكر .. لن أدع تلك الفرصة مطلقاً .. لن أدعها حتى ولو كلفنى الأمر أن أضحى بأغلى ما لدى .. حتى ولو كانت سناء نفسها .. ثم انتبه على كلمات سالم المتوسلة وهو يرجوه فسارع قائلا:

- سأمنحك المبلغ يا سالم بك .. و ..

وقبل أن يتمادى سالم فى كلمات الشكر والعرفان بالجميل .. استطرد شريف بثبات قائلا:

- على شرط ..

- كل ما تريده من شروط سأحققها لك يا شريف بك.

ابتسم شريف ابتسامة باهتة .. ثم أجابه

- أن تتنازل لى عن مكتب أبى .. مقابل المبلغ الذى سيخلصك من السجن.

تراجع سالم بخطوه إلى الوراء .. كأنه تلقى لكمة عنيفة إلى صدره ثم ردد مذهولاً.

- مـاذا؟

وأعاد شريف شرطه بإصرار بدا واضحاً فى نظرته إليه .. وكأنه يقطع الطريق أمام تفكيره لاحقه قائلا:

- أنا أعلم كما ذكرت لى بأن لديك توكيلا عاما من شقيقتك ثريا هانم وأعتقد أنك لست فى حاجة الآن للمكتب.

- ولكن .. أقصد ..

ثم تظاهر بالثبات وهو يستطرد:

- أهو انتقام .. أم.

فقاطعه شريف بهدوء:

- أنا أدفع المقابل .. والانتقام يكون عادة بلا مقابل .. أليس كذلك يا سالم بك.

أسقط سالم رأسه إلى صدره وهو يهمس إلى نفسه:

- أجل .. وقد آن الأوان لأدفع أنا المقابل.

ودفع سالم المقابل .. تنازل عن المكتب فى سويعات قليلة .. وحصل على المبلغ الذى أراده. ولكنه خسر الكثير بعد ذلك، فلم يجد مفراً غير أن يحمل لعنات شقيقته على أكتافه ويرحل بعيداً، باحثاً عن مكان تحت الظل، يخفيه من التعليقات الساخرة من حوله .. لعله يجد مأمنا من تأنيب الضمير.

ومرة أخرى يعود الابن الهارب إلى حيث كانت طفولته .. ولكنها فى هذه المرة عودة شامخة يحيط بها الأمان والثبات .. أحس شريف وهو ينزع اللافتة بيده التى عليها اسم سالم كأنه يغتسل من مرارة الألم التى لازمته سنوات طويلة .. ويقتلع من أعماقه جذور الحقد التى طالما نهشت صدره بلا رحمة .. ثم رفع لافتة جديدة تحمل اسم أبيه وكل خلجات كيانه تنتفض طرباً وسعادة وكأنه بذلك يعلن للعالم أجمع أن صابر الجندى لم يخدعه أحد .. أو كأنه يسترضيه لعله يعود يوماً.

ولكن صابر الجندى لم يعد .. والقلب الحائر لم يسترح .. ولم يبق غير صدى كلمات سناء فى أعماقه وهى تردد عليه.

.. أنت واهم .. أنت لا تعرف ماذا تريد.

أدرك شريف أن حصوله على مكتب أبيه لم يمنحه الإحساس بالانتماء الذى كان يبحث عنه .. وبأن انتقامه من سالم لم يعد بأبيه الغائب إليه .. أدرك أموراً كثيرة .. بأن الحياة لا تمنح السعادة ولا الشقاء .. ولا تساهم فى نجاح أو فشل .. هى فقط تستقبل ولا تعطى .. وبأن الحقيقة الوحيدة التى فى حياته هى أنه غير قادر على معرفة ماذا يريد. من أجل هذا قرر أن يعود إلى سناء .. وهناك أخبرها بالحقيقة .. بأنها كانت محقة فى كلماتها إليه .. وبأنه ما يزال لا يعرف ماذا يريد .. حاول أن يسترضيها بأن يوحى إليها أنه قد تخلص من أزمته النفسية .. وبأنه أصبح طليق النفس غير مقيد بقيود الوهم .. وبأحاسيس الغربة.

ولكنه يفاجأ بها تقاطعه بهدوء:

- شريف: أنا لست حزينة لما بدر منك تجاهى .. ولكنى الآن أطالبك بشىء واحد .. فأنت حققت كل ما أردته حتى مع نفسك .. ومن حقى الآن أن أطالبك أن نبدأ من جديد.

تناول يدها برفق وتمتم قائلاً:

- لا أعرف ماذا تعنين.

سحبت يدها بهدوء .. ثم أجابت:

- عليك من الان أن تختار بين الوهم وبينى. فأنا لم أعد قادرة على التنافس بينى وبين إحساس لا مرئى.

اقترب منها وهو يحيطها بنظرة حانية:

- صدقينى يا سناء .. أنا أحبك .. ولكن لا أعرف ما تقصدينه بأن نبدأ من جديد.

فسارعت قائلة:

- أن نعمل .. أن نبدأ العمل .. وليكن فى مكتب أبيك .. ستحقق ما نريده .. و ..

ابتسمت ابتسامه رقيقة ثم استطردت:

- على الأقل نستعيد المبلغ الذى كنت تدخره لعشنا الهادئ .. أم أنك .. قاطعها وهو يضمها إلى صدره:

- سنعمل يا سناء .. ففى رأسى مشروعات كثيرة .. لا تتطلب أكثر من ابتسامة واحدة من شفتيك .. تشعرنى بأنك غفرت لى.

رفعت إصبعها ووضعته على فمه .. ثم قالت:

- ليس لدينا وقت للحديث عن الماضى ..

ثم تأبطت ذراعه وهما فى طريق العودة.

(٨)

سرى نبأ عودة صابر الجندى إلى شبرا مرة أخرى كالبرق .. فكل من سمع بقصة اللافتة الجديدة لا يتوانى فى نقلها للآخرين حتى أصبح ذلك الخبر كما لو كان حدثا تاريخياً.

وكثرت الأقاويل فى كل منتدى .. كما وجد أصحاب المواهب فى اختلاق القصص فرصة عظيمة لمارسة هوايتهم واشباع رغباتهم.

صابر الجندى استرد مكتبه، ويقال أنه كان يعمل بالخارج.

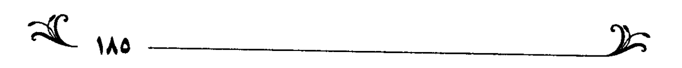
فتحمس آخر من هواة الإثارة:

.. لا تقل هذا يا رجل .. فأنا علمت من مصدر أكيد أنه كان يقضى مدة عقوبته بالسجن.

ويعترض الثالث:

.. كفى إشاعات يا جماعة .. أنا سمعت أنه عاد إلى زوجته الثانية بعد أن طلقت من زوجها الحالى.

واحد فقط هو الذى أصر على عدم عودة صابر الجندى، ودفعته ثقته فى كلامه على أن يراهن بذلك.



وهو نيقولا البقال .. ويسأله بعضهم عن سبب تأكده إلى هذه الدرجة فيفاجئهم قائلا:

.. لأنه إذا كان عاد فعلا، فسأكون أنا أول من يراه .. لأنه إذا استغنى عن الجميع .. فلن يستغنى عن زجاجة البولاناكى.

ويفوز نيقولا بالرهان عندما يذهب بعضهم إلى مكتب الجندى حتى يقطعوا الشك باليقين .. ويفاجأ الجميع بشريف الذى بدا سعيداً إلى أقصى درجة وهو يتابع توافدهم إلى المكتب، ويسعى متعمدا إلى أن يفصح عن شخصيته .. وأنه شريف ابن صابر الجندى.

بدأت سناء تكتشف حقيقة لم يستطع شريف أن يخفيها بالرغم من محاولاته .. أحست وكأنه يختلس مكانته وانتماءه بين الآخرين .. ويبدو واضحاً أن ذلك الإحساس لم يكن بعيداً عن أعماقه وتفكيره، عندما يتسلل الواحد تلو الآخر كلما اكتشف الحقيقة.

وتركوه مرة أخرى فى وحدته على غير توقعاته، حتى سناء نفسها تسللت هى الأخرى إشفاقاً عليه وعلى قلبها الكسير من أن تراه وهو يشهد انهيار آماله .. شعرت بأنه قطع تلك الرحلة الطويلة مع الألم والضياع من أجل أن يحقق ذلك الموقف فقط .. وكان عليها أن تتخذ قراراً.

وكان قرارها أقسى على نفسه من كل مرارة الحسرة التى صدم بها .. أدرك أنها قد استطاعت أن تكشف ستار الغموض عن أعماقه

فبدت الحقيقة عارية أمامها .. الحقيقة التى عاش سنوات طويلة يختبئ وراءها من أجل غرض فى نفسه.

حيث فاجأته بعودتها بعد أيام قائلة:

- شريف لقد التحقت بعمل فى أحد فنادق مصر الجديدة.

وبحذر كبير أجابها مستفسراً.

- كيف .. كيف تلتحقين بعمل وأنت .. أقصد ألم نتفق بأننا سنعمل معا فى هذا المكتب.

نهضت من مكانها واتجهت بخطوات ثابتة تجاه النافذة المطلة على الطريق كأنها تبحث عن ذلك الاتفاق بين الزحام ثم التفتت إليه متسائلة:

- أما زلت تذكر أن بيننا اتفاقاً.

وبنظرة تملؤها الريبة همس قائلاً:

- ماذا تقصدين يا سناء .. أنا ..

لاحقته وهى تتقدم نحوه:

- اسمعنى جيداً يا شريف .. أنت لم ولن تعمل فى هذا المكتب لأنك أساساً لا ترغب فى ذلك .. ولكنك أردت فقط أن تحقق شيئاً تصورته سيرضيك.

- سناء.

وبانفعال حبيس فى صدرها:

- لا تقاطعنى أرجوك .. أنا أحبك حقاً .. ولكن يجب أن تعلم جيداً أن حبى لك لن يدفعنى لكى أخدع نفسى بأوهامك .. و ..

واقتربت من وجهه كأنها تحاول أن تحاصر عينيه واستطردت:

- أنت لم تبحث عن أبيك قط .. كنت تبحث عن وجودك فقط .. كنت ترغب فى ..

ولكنه نهض مبتعداً عن محاصرتها .. وقاطعها:

- هذا هراء .. أنا عشت طوال هذه السنوات على أمل أن أجد أبى .. أنا أبحث عن انتمائى .. كما أننى ..

ولكنها توقفه وهى مستمرة فى انفعالها:

- لا تستمر فى خداعى وخداع نفسك .. ولا تتحدث عن الانتماء .. فجنود المرتزقة الذين يحاربون على أرض غير أرضهم ما تكاد تواتيهم الفرصة حتى يلقوا بأسلحتهم مقابل المال أو مقابل حياتهم .. المهم أنهم دائماً يبحثون عن المقابل.

ثم أشاحت بوجهها عنه وهى تردد:

- ويؤسفنى أنك مثلهم .. وأنت لم تشعر نهائياً بانتمائك لأبيك

وإلا كنت بحثت عن انتمائك لأخيك وأختك .. ولكنك تريد شيئاً آخر .. تريد أن تثبت للآخرين ولنفسك بأنك بالرغم من كل شئ أصبحت ذا شأن .. أردت أن تثبت هذا حتى لأبيك نفسه .. أردت أن تبدو بطلا .. ولكنك يا شريف كنت تحارب على أرض غير أرضك .. فلا تتحدث عن الانتماء.

وكأنه فقد القدرة على مواصلة المقاومة والعناد .. فجلس على أقرب مقعد وهو يخفى وجهه بين كفيه .. عساه أن يخفى نفسه من صدى الحقيقة فى نفسه.

وشعرت سناء بأنها فى سبيلها لإنقاذه من ذلك الوهم، ولم تشأ أن تفوتها تلك الفرصة فلحقت به وما كادت تتفوه بكلمة واحدة حتى رفع رأسه إليها وهو يشير بيده قائلا:

- كفى يا سناء .. كفى .. أنت تدمريننى بكلماتك .. أنت لا تفهميننى.

وبإصرار عنيد أجابته:

- يجب أن تفهم نفسك أنت .. أنا لا أنكر أنك تحب أباك .. ولكنك لا تنتمى إليه .. من الظلم أن تقارن الانتماء بالحب .. فرق كبير بين أن نحب وبين أن ننتمى .. الحب قد يخضع للمؤثرات الخارجية .. ولكن الانتماء لا يعترف بهذا .. فليس له إلا طريق واحد .. وللحب مليون طريق.

حاول أن يستميلها قائلا:

- أنا فى حاجة إليك يا سناء .. أنا ..

ولكنها تسيطر على مشاعرها وهى تقول:

- كلنا فى حاجة إلى الحقيقة.

ثم تناولت كارتاً من حقيبتها وضعته أمامه قائلة:

- هذا عنوان عملى الجديد .. وأنا فى انتظارك إذا ما استطعت أن تصل إلى الحقيقة فى أعماقك.

ومضت برهة وهى تغوص بنظرتها إلى عينيه .. وانصرفت.

لم يحاول أن يستوقفها بالرغم من قوة حبه لها .. أحس برغبة كبيرة فى أن تنصرف عنه ولكنه لم يشعر بالسعادة لانصرافها.

دار بعينيه يمسح أرجاء المكتب بنظرته كأنه يبحث عن شئ واحد يشعره بأنه مرتبط به، ثم توقف عند المرآة المرفوعة أمامه على الحائط، وطالت نظرته فبدا وكأنه لم يجد غير صورته التى أحس بارتباطه بها .. ولكنه سرعان ما التفت بعيداً خوفاً من أن يتسابق وراء ذلك الإحساس فيؤكد كل ما ذكرته سناء عنه.

حاول بعد ذلك أن يشغل نفسه بأمور لم يكن قد تعود عليها فى أى وقت سابق .. ذهب إلى السينما .. تسكع على المقاهى

الكافيتريات .. فكر فى العودة إلى عمله الليلى ولكنه تراجع .. اعتكف فى شقته الصغيرة أكثر من يومين ولكن الملل أعاده للطريق مرة أخرى .. كانت صورة سناء لا تفارق خياله فى أية لحظة .. وكلماتها تتردد فى أذنيه كما لو كانت مرتبطة بأنفاسه.

ولكنه الحب . وكان عليه أن يختار طريقاً من المليون طريق الذى يؤدى فى النهاية إلى قلب سناء .. وذلك أفضل له من إحساسه بالفشل فى البحث عن الطريق الواحد .. عن انتمائه.

كان النهار فى منتصفه وشريف يقف أمام مكتب الاستعلامات فى الفندق وهو يستفسر عن سناء، ومضت دقائق قليلة ظهرت بعدها وهى ترتدى اليونوفورم الخاص بعملها الجديد .. بدت فى عينيه أجمل فتيات الدنيا .. وما كادت تراه حتى أسرعت فى خطواتها تجاهه، وكأنها لم تتوقع عودته إلى الأبد.

- شريف .. كم أنا سعيدة لرؤيتك.

تلفت حوله كأنه يتأكد من أن لا أحد يراه، لكى يقدم على رغبة راودت خاطره، ولكنه تراجع مسرعاً وهمس.

- متى سيكون انصرافك.

وبدون تردد أسرعت قائلة:

- الآن .. الآن وفوراً.

كانا يخطوان على الطريق وكأنهما يقفزان .. أصابعهما متشابكة فى عناق قوى .. يتنقلان من حديقة إلى أخرى .. يستطلعان المبانى الجديدة وهما يحلمان بشقة فى إحداها .. لم تحاول أن تستفسر عن اختياره .. وهو لم يسع للاعتذار .. كان لقاؤهما أشبه بلقاء بعد غربة طويلة .. الحب وحده هو الذى ينظم أحرف كلماتهما .. ولهفة الشوق هى التى تحدد لفتاتهما.

ولكنه توقف فجأة عن السير وأمسك بيدها ثم قال:

- سناء .. أنا قررت أن أترك المكتب.

تفحصت وجهه بدهشة.

- ماذا تقول؟!

- نعم .. سأترك المكتب .. لا أعرف كيف .. ولكن ربما أتنازل عنه .. ربما أغلقه .. المهم أننى لن أمكث فيه.

ضغطت على يده برفق ثم أجابت:

- أعتقد أن موضوعاً هاماً كهذا .. لا يجب أن نتحدث عنه فى الطريق ما رأيك لو جلسنا فى مكان أكثر هدوءا.

أومأ برأسه موافقاً .. وسار بخطوات صامتة، كأن كلا منهما يتأهب لما يمكن أن يقوله للآخر.. أو كأن كليهما فى حاجة للصمت.

وفى داخل الكازينو حاولا أن ينفردا بقدر الإمكان بعيداً عن الموائد المزدحمة .. ثم بادرته قائلة:

- لماذا لا تستغل المكتب فى الأعمال الحرة.

- لست متحمساً لشىء .. ولكن أفكر جدياً فى الهجرة.

اتسعت عيناها وهى تردد:

- الهجرة.

فاسرع مؤكداً.

- أنا .. وأنت.

ارتفع صوتها قليلا وهى تقاطعه:

- كيف فكرت فى هذا .. وعملى .. وأهلى .. و..

بدا الوجوم على وجهه واضحاً كأنه اكتشف فجأة أن حبيبته تنتمى إلى أسرة وأن قراراً مثل هذا يجب مراجعته كثيراً، انتبه إليها وهى تستطرد.

- أهذا كل ما وصلت إليه.

فأجابها متداركاً الموقف:

- لا .. لا بالطبع .. تلك كانت مجرد فكرة .. إذا كان الأمر لا

يروق لك فمن الممكن أن أبحث عن أى عمل هنا .. أو أعود إلى عملى القديم.

و .. اضطر للصمت فجأة عندما لفت انتباههما وانتباه كل الجالسين صوت قوى يردد!

.. لا تحزن .. لا تيأس .. لا تغضب.

فكان صابر الجندى مرة أخرى بصورته المعتادة .. المسابح .. وحبات الودع .. والبخور .. كما أنه استحدث أشياء جديدة مثل الراديوهات الترانزستور الصغيرة والكثير من الميداليات الحديثة .. لم تطرأ عليه تغيرات كثيرة بعد زيارته لابنه نظمى غير أنه بدل حذاءه بآخر جديد، وأطلق لشعره العنان.

وكان واضحاً أن صابر الجندى معروفاً تماما لهذا الكازينو، حيث أنه بمجرد ظهوره تلقفته الصيحات من كل جانب .. وخاصة أرباب المعاشات الذين يتجمعون فى أركان عرف باسمهم. فبعضهم فى حاجة إليه أكثر من الشباب أنفسهم.

كان يتنقل من مائدة إلى أخرى وهو بخبرته الطويلة يدرك تماماً عن أى شئ يتحدث.

فاذا ما كان أحدهم منفرداً .. كانت كل اهتماماته فى إنجاح

صفقة بيع لراديو أو ميدالية .. وإذ كان الذى أمامه تجاوز الستين فحديثه معهم خاص عن العنبر وفوائده.

ولكنه لا ينسى مطلقاً أن يبدأ حديثه بكلماته المأثورة:

.. لاتحزن .. لا تيأس .. لا تغضب.

وجاء الدور على مائدة شريف الذى التفت تجاه سناء كأنه يتبين رأيها .. فأومأت برأسها بدلال ..

وقبل أن يتخذ قراراً كان صابر الجندى يقف أمامهما مستأذنا .. ثم أسرع بالجلوس عندما لا حظ ابتسامة سناء ..

وبلا مقدمات أمسك بكفها قائلا:

- أعطنى يدك يا ابنتى .. أخبرك عن حالك وأحوالك.

بدت حمرة الخجل واضحة على وجهها وهى تسحب كفها .. ثم أشارت إلى شريف قائلة:

- ابدأ به أولا.

ويتلقائية أسرع من طرفة العين كان كف شريف بين راحتى صابر الجندى .. وراح يدقق النظر فى كفه كأنه يقرأ صفحات من المجهول ثم رفع عينيه الذابلتين إليه وقال:

- أنت طيب القلب .. كريم فى عطائك .. إنسانة تحبك من

دمك .. احذر بعض المتربصين لك .. و ..

رفع عينيه لتلتقى بنظرة شريف الذى شعر بقلبه ينتفض هلعاً من إحساس ما بدأ يزحف إلى صدره .. ثم أعاد صابر الجندى تفحصه فى كف شريف المرتجف وأردف:

- أنت هادئ البال .. وأنت أقرب اخوتك إلى قلب أبيك وأمك. سأعطيك حجاباً تضعه تحت وسادتك .. و ..

ومرة أخرى يختلس نظرة سريعة إلى سناء كأنه انتبه لوجودها ثم عاود كلماته لشريف متسائلا:

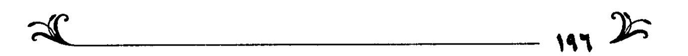
- أنت بحار أو طيار .. أو عائد من غربة طويلة .. أليس كذلك.

ولم يجب شريف .. لم يحرك ساكناً .. تجمدت عيناه على وجه صابر الجندى واشتدت رجفة يده بشكل جذب انتباه سناء وكذلك الأب الغافل.

واضطر صابر الجندى إلى أن يعيد تساؤله لشريف مرة أخرى ولكن بأسلوب آخر لعله لم يفهم مقصده:

- أنت تعيش فى البحر أو ..

ولكنه صمت فجأة عندما اشتدت رجفة يد شريف، وبدأت حبات العرق تطفو على وجهه .. ويظن صابر الجندى أنه شديد



التأثير عليه إلا أنه يتراجع عن تلك الفكرة عندما يلحظ توتر شريف غير العادى .. فيلاحقه هامساً:

- ما اسمك يا بنى.

أحس شريف بأنه غير قادر على التماسك .. صورة أبيه بدأت تزحف رويداً على وجه صابر الجندى حتى باتت معالمه واضحة تماماً بالنسبة إليه.

وبشفاه مرتعشة أجابه:

- شريف .. اسمى شريف صابر الجندى.

كأن زلزالا مدمراً قد فاجأ المكان .. والسماء أطبقت على الأرض .. كأن الشمس قررت الانتحار فوق الكون كله .. والليل بات بلا قمر .. كأن براكين الدنيا قد انفجرت فجأة فى أعماق صابر الجندى وهو يردد بنبرة حزينة:

- من؟

امتدت يد شريف الثانية ليضعها برفق كبير على يد صابر الجندى ثم قال:

اسمى شريف الجندى .. و .. وأنت؟.



لم تستطع سناء أن تتمالك نفسها .. فأطلقت ضحكة عالية وهى تقول:

- لماذا .. هل ستقرأ له الكف يا شريف .. أم ..

ولكنها أمسكت عن الكلام عندما وجدته يرمقها بنظرة قاسية لم ترها فى عينيه من قبل .. ثم التفت إليه متسائلا:

- وأنت ..

ومن خلال تجاعيد الألم والحسرة التى ارتسمت على وجه صابر أجابه بصوت متهالك وهو يشير إلى سناء:

- خطيبتك .. أم زوجتك؟

وكأنه لم يسمع شيئاً .. كرر شريف قائلا:

- وأنت؟

وتسلل إلى صدر صابر الجندى إحساسه بأنه يعيش واقعاً حقيقياً وأن مشاعره تجاه ذلك الشاب ليست وهما .. ولكن الخوف .. والخوف فقط هو الذى جعله يزداد حرصاً وهو يهمس قائلا:

- هل أبوك حى يا ولدى؟

غاص شريف فى عينى أبيه وهو يجيب:

- أستطيع الآن فقط أن أؤكد أنه حى .. نعم حى .. و ..

ولكن انتفاضة صابر الجندى المفاجئة ومحاولته للتملص من مواصلة الحديث معه .. جعلت شريف يسكن كالمذهول متابعاً انصرافه بخطواته المتهالكة وهو يردد:

- لا تحزن .. لا ..

ولكن .. يسقط صابر الجندى فجأة على الأرض ويتجمهر حوله كل الجالسين ، ويهرع شريف إليه وهو يشق طريقه وسط الزحام إلى أن يصل إلى ذلك الكيان المنهار .. وتلتقى عيناه بنظرة أبيه المتوسلة وهو يرجوه بإشارة من رأسه بألا يبوح بالحقيقة ثم يغمض عينيه إلى الأبد.

وتصمت أنفاس صابر الجندى وهو بين ذراعى شريف الذى ألقى برأسه على صدر أبيه الصامت وراح فى بكاء مرير، بينما تتدافع الأيدى من كل اتجاه .. والصيحات من حوله تردد:

.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

.. مات الرجل.

.. لقد كان بيننا منذ لحظة.

ابحثوا عن هويته.

.. قد يكون هناك من يعرفه.

.. هيا ننقله .. هيا ننقله.

وبدت أصابع شريف متحجرة على أكتاف أبيه الراقد فى سلام .. بينما تحاول سناء أن تطل عليه من وراء الحشد المتجمع الذى حال دون أن تراه أو يراها.

تمت

